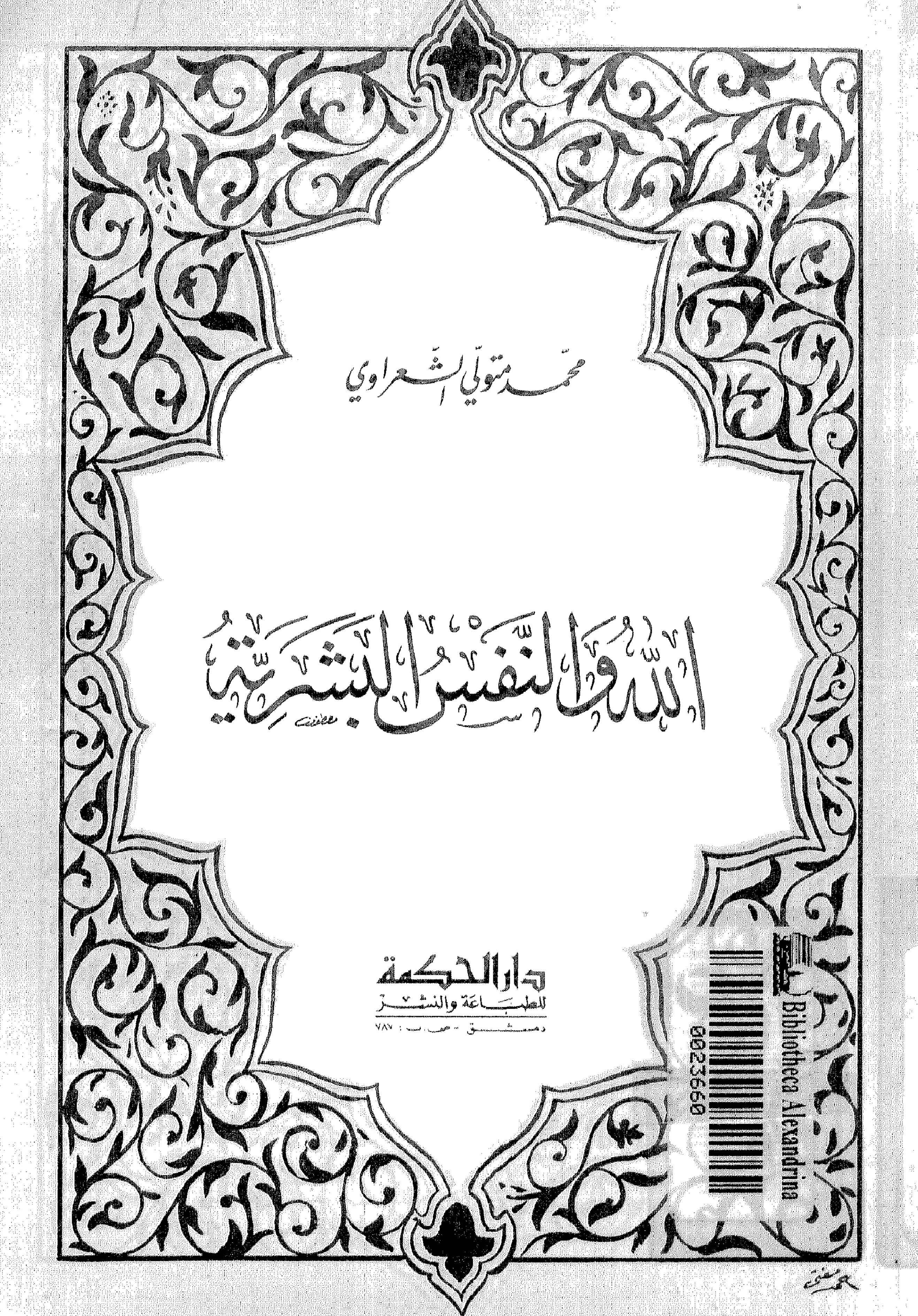

محمد متولي الشعراوي
الله والنفس البشرية
دار الحكمة
للطباعة والنشر
دمشق - ص.ب : ٧٨٧

دار الحكمة
للطباعة والنشر

دمشق ـ سورية ـ بناء سادكوب ـ الحلبوني

سجل تجاري ٢٤٩٦٨

هاتف ٢١٢٩٦٧ ـ ٢٣٠٧٣٨

ص.ب ٧٨٧ ـ دمشق

ص.ب ١١٣/٥٧٢٠ بيروت

محمد متولي الشعراوي

الله والنفس البشرية

دار الحكمة
للطباعة والنشر
دمشق . ص . ب . ٧٨٧


بسم الله الرحمن الرحيم

الله والنفس البشرية

إن الإنسان يتصل بالعالم الخارجي بواسطة، بالفطرة.. نحس بها ولكننا لا نفهمها.. فنحن حين نحب ونكره.. مهما حاولنا تفسير ذلك الإحساس لا نستطيع ان نصل إلى حقيقته.. وعندما نولد تبدأ الفطرة عملها.. قبل الحواس..

يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في حديثه: إن الإنسان في صلته بالعالم الخارجي يتمتع بما نسميه الحاسة.. أو الحواس.. فأنت ككائن بشري حين تتصل بالعالم الذي يحيط بك. فإنك تتصل به عن طريق حواس حددت بخمس هي: أن يسمع الإنسان ويرى ويشم ويلمس ويتذوق.. هذه الحواس نفهم بواسطتها العالم الخارجي ونميز بواسطتها هذا العالم، بل ونعطيه صفاته التي نطلقها عليه.. فصفات الألوان مثلاً نميزها بحاسة البصر.. ونوع الطعام مثلاً نعطيه لفظ الحلو.. ولفظ المر.. ولفظ الجيد.. ولفظ الرديء.. بحاسة الذوق الى آخر هذا الكلام.. إذن فنحن نتصل بالعالم الموجود خارجنا عن طريق هذه الحواس.. ولكن ماذا عن عالم ما هو داخل النفس البشرية ؟. وكيف يمكن أن يتم الاتصال بين الإنسان.. وما هو موجود في داخله ؟. هل يتم هذا الاتصال عن

طريق الحواس، أو عن طريق أشياء أخرى يطلق عليها بعض الناس لفظ إلهام خاص.. وبعض الناس ألفاظ أخرى.. ولكن المؤكد أن هذا الإحساس الذي يتم بالنسبة لما في داخل النفس البشرية لا يتم عن طريق الحواس الخمس التي تتصل بها بالعالم الخارجي.. وإنما يتم عن طريق أشياء اخرى يطلق عليها كما قلت إلهام أو إحساس داخلي إلى آخر هذا.

ولنشرح الموضوع بشيء من التفصيل.. نبدأ أولاً بالأشياء التي يصل اليها الإنسان عن طريق حواسه التي توصله بالعالم الخارجي.. فهو يرى ألواناً مختلفة.. ويسمع أصواتاً مختلفة.. ويلمس أشياء مختلفة.. ويتذوق طعاماً مختلفاً.. ويشم روائح مختلفة.. هذا هو اتصال الإنسان بالعالم الخارجي.. أما اتصاله بما في داخله يأتي مثلاً عن طريق شعوره بالجوع.. إننا لا نرى الجوع.. ولا نلمسه.. ولا نشمه.. ولا نتذوقه.. ولكننا نشعر به.. وما ينطبق على الجوع.. ينطبق على الأشياء الأخرى.. مثل الحب والكره مثلاً.. الإنسان يحب شخصاً ما.. ويكره شخصاً ما.. أو شيئاً ما.. دون أن يكون لذلك سبب حسي معروف.

إذن فهناك أشياء في داخلنا.. تسمح لنا بأن نشعر شعوراً معيناً.. هذا الشعور نحس به ونعرفه تماماً.. ولكننا لا نراه بحواسنا.. إن الإنسان مهما قال في شرح أسباب الحب والكراهية لا يستطيع ان يصل إلى الحاسة التي تسبب الحب.. أو التي تسبب الكراهية.. فهذه الحاسة لا تدخل ضمن الحواس الخمس.. التي يتصل بها الانسان بالعالم الخارجي.. او التي تحدد علاقة الإنسان بالعالم المادي.. ومن هنا فإن العلماء حريصون حينما يتحدثون عن

الحواس أن يقولوا إن هذه الحواس هي التي توصل الإنسان بالعالم الخارجي. . وإن الإنسان له ملكات وغرائز وشعور وإلهام. . وأشياء أخرى في داخله توصله بداخل النفس البشرية. . وتؤثر في هذه النفس.

والذي لا يخضع للمنطق أن نحاول أن ننكر أن في داخل الإنسان أشياء كثيرة غير الحواس التي توصله بالعالم الخارجي. . وإن الإنسان يستطيع أن يتصل بالعالم. . بينما ما بداخله يترك بلا اتصال أو إحساس معين، بل الحقيقة أن الإلهام أو الشعور والإحساس بما في داخل النفس البشرية يوجد قبل إحساس هذه النفس بما حولها من العالم. . تلك سنة الخلق. . فالطفل الصغير مثلاً يحس بالجوع والعطش. . ويعبر عنهما بالبكاء قبل أن يستطيع ان يستخدم حواسه في الاتصال بالعالم الخارجي. . وهو يحس بالحنان والدفء. . والحب والكره. . والقسوة. . والرحمة. . كل هذه الأشياء توجد في داخل نفسه مع دقات الحياة الأولى. . بينما الحواس قد تنتظر أسابيع او شهوراً قبل أن تستطيع أن تؤدي مهمتها بشكل يمكن أن يعبر عنه.

وإذا درسنا هذه الحواس الداخلية. . نجد ان أقواها هو إحساس الإنسان بوجود الله. هذا الإحساس الذي قد يفتقر إلى شيء من الدقة بالنسبة لعظمة الله وقدرته. . والكون. . ووجوده. . وكل شيء من هذا النوع. . ولكن هذا الإحساس يؤكد وجود قوة داخل الانسان تدفعه إلى أن يشعر ويحس بوجود الخالق سبحانه وتعالى.

أحاسيس النفس :

ولكي أوضح هذه النقطة. . أحب أن أقول إن النفس البشرية

التي فيها أحاسيس لا نستطيع أن نحللها بدقة.. ولا أن نصل اليها لنعرف ما هي.. تحس أيضاً هذه النفس إحساساً يقينياً بوجود الله سبحانه وتعالى.. فاسم الله مثلاً هو شيء لا تدركه الحواس الخمس.. لأنه أكبر من قدرتها.. ولكن تدركه حاسة داخل الإنسان، حاسة غير مرئية. ومن هنا فإن كلمة الله التي هي فوق قدرة الحواس الخمس.. نجد ان الأذن تفهمها عندما تسمعها.. ولا يمكن للأذن أن تفهم شيئاً لا يوجد أصلاً داخل النفس البشرية.. بحيث يكون التصور هنا ليس غريباً تماماً على هذه النفس.. بل هو معروف لها بشكل قد لا نفهمه نحن.. ولا نستطيع أن نحلله.. ولكنه معروف.. فعندما يذكر لنا أحد اسم الله.. فإن الذي يقفز إلى عقولنا هو وجود قوة خارقة هي التي اوجدت هذا العالم.. وان هذه القوة خارج نطاق العقل.. بل وخارج نطاق الحواس.. إذن.. كيف ندرك وجود هذه القوة ؟. وكيف يكون اسمها مألوفاً عندنا وهي خارج نطاق الحواس وخارج نطاق العقل ؟. هنا يأتي ما في داخل النفس.. وهو الإلهام.. أو الشعور. ليقول لنا إن هذه القوة رغم أنها فوق مستوى العقل والحواس.. فإنها موجودة داخل النفس.. والنفس تفهم وتحس بوجودها.

وفي العصر القديم بدأ الفلاسفة.. خصوصاً فلاسفة اليونان يبحثون عما وراء المادة.. عما وراء هذا العالم المادي، عن الخلق.. وعن القوة التي اوجدت هذا العالم.. الى آخر فلسفة اليونان القديمة.. عن ما وراء المادة.. من الذي قال لهم إن هناك شيئاً وراء العالم المادي يجب أن يدرس ؟ كيف عرفوا أن هناك شيئاً خلاف المادة ؟. مع أن الحواس الخمس لا تقول لنا شيئاً عن المادة.. ونحن هنا لا نناقش فلسفة اليونان.. وسواء نجحت هذه

الفلسفة أو غيرها.. أو فشلت.. موضوع لا يهمنا في هذه الحلقة..
وإنما الأمر الذي يهمنا أنهم كانوا مدفوعين لينظروا إلى ما وراء الطبيعة.. وانه كانت لديهم أشياء داخل أنفسهم.. ليست أشياء حواسية.. أي لا تخضع للحواس ليفعلوا ذلك..

بل إن الإنسان منذ فجر التاريخ.. منذ بداية خلقه.. وهو يبحث عما وراء المادة.. يبحث عنه بطرقه المختلفة.. وهو أحياناً يتخذ سبيلاً أو آخر لإظهار خضوعه أو عبوديته لهذه القوة التي هي وراء المادة. ولكن المهم في هذا كله.. أن هناك شعوراً داخلياً في النفس البشرية.. يقول لها إن هناك شيئاً وراء الطبيعة.. إن هناك قوة ما وراء هذا العالم.. وإن هذه القوة.. هي قوة عظيمة وخارقة.. هناك شعور داخلي في كل نفس بشرية لوجود الله.. تلك القوة التي هي وراء هذا الكون.. هناك شيء داخل النفس البشرية يجعلها تدرك أو تفهم أن العالم المادي الذي يرونه لا يمكن إلا أن تكون وراءه قوة خارقة قادرة منظمة قوية.

العالم والمادة:

ولكن هذا العالم المادي نفسه الذي نعيش فيه.. لا يمكن أن يخلق فينا هذا الشعور.. لا يمكن أن يقول لنا إذا استخدمنا حواسنا فقط إن هناك قوة قادرة قاهرة خلف كل هذا.. إذن لا بد أن هناك قوة أخرى خلاف هذا العالم المادي هي التي وضعت فينا هذا التصور.. وهو أن هناك شيئاً خلاف المادة يجب ان يتم البحث عنه.. ومن هنا بدأ البحث والفكر والاتجاه نحو هذه القوة.. ولو لم يكن هناك شعور في داخلنا.. وإحساس قوي بوجود هذه القوة لما بحثنا.. ولما وجد كل هذا البحث عبر تاريخ البشرية.

على أن هناك ملاحظة أخرى أحب أن أسجلها . . هي أن الإنسان حين يصل إلى مرحلة التفكير في وجود الله . . أو المرحلة التي يعقل فيها أن هناك قوة خارقة وراء هذا الكون . . لا بد أن تكون قد مرت فترة من عمره . . فالإنسان عادة لا يبدأ في التفكير في مثل هذه الأمور . . والتحدث عنها بعمق دون أن يكون قد تجاوز سن العشرين أو الثلاثين على الأقل . . ليكون لديه نضج العقل الكافي لمناقشة أمر عميق كهذا . . والسؤال الذي يجب أن يطرح هنا ، هو بأي منطق عبد هؤلاء الناس الله قبل الوصول الى هذه السن ؟ . وكيف تفهموا كل هذه الفلسفة التي تحتاج إلى عقل ناضج ، وإلى علم ودراسة وتأمل . . حتى يستطيعوا أن يصلوا إلى أن هناك شيئاً وراء المادة ؟ . ولكننا نجد العقول البسيطة التي لم تقرأ كتاباً واحداً . . تعرف أن الله موجود . . وتعبده بفهم . . ونجد أولئك الذين لم يناقشوا هذا الموضوع على الإطلاق ، يعرفون وجود الله . . ويقومون بعبادته . . بل إن أكثرهم يحس بانسجام فطري غريب بأن الله سبحانه وتعالى . . ووجود الكون شيئان لا بد منهما . . وأن وجودهما حقيقة داخل النفس . .

إن هذا الشيء نفسه . . هذا الذي يوجد داخل النفس البشرية ليؤكد أن هناك شيئاً وراء المادة . . وأن هناك قوة كبرى وراء هذا الكون . . دون أن تكون قد وصلت إلى سن النضج والدراسة والفلسفة التي تؤهلها لمناقشة هذا الموضوع . . هذا في نفسه دليل على وجود الله سبحانه وتعالى . . فلقد عبدوه عن إيمان خلق في قلوبهم . . منذ اللحظة التي يولدون فيها . . وانطلاقاً من هذا الايمان عندما نضجوا . . قادوا عقولهم إلى التفكير . . وسواء سارت العقول في الطريق السليم . . أو ضلّت الطريق . . فالإيمان بالله . . والبحث عنه . .

ووجود شيء فوق العالم المادي موجود في النفس البشرية.. بالفطرة وليس بالعلم.. ولو وجد بالعلم لكان لا بد أن يبدأ عندما يبلغ الإنسان سن النضج في التفكير.. ولو كان موجوداً بالعلم لعندما وصل العلم إلى مرتبة العجز.. عجز العقل البشري عن الوصول إلى صفات الله وقدراته.. لتركت هذه القضية على أساس أنها فوق قدرة العقل.. ولكن بالرغم من أنها فوق قدرة العقل.. فهي قضية مثارة.. وأجهد الناس أنفسهم فيها.. كل واحد يحاول أن يصل إلى وجهة نظره حول هذا الموضوع.

ومعنى هذا الجدل كله الذي يمضي ولن ينتهي.. ومعنى البحث عن أدلة عن القوة الموجودة وراء العالم المادي.. معناها أننا نعرف وجود الله بالفطرة.. وأنه يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد أن الله موجود.. وإلا لما أنهكت النفس البشرية قواها في هذا الجدل.. ولكان العقل البشري يعيش مطمئناً وسعيداً بالعالم المادي.. الذي خلق فيه.. ولا يحاول أن يصل إلى أكثر من ذلك.

رسالات السماء

إن الذين اتخذوا إلهاً يعبدونه غير الله . . هم الذين وضعوا منهج العبادة حسب أهوائهم وأغراضهم . . ولكن رسالات السماء حددت للإنسان طريق العبادة والطاعة . . وفرق بين عقل يخضع الخالق لحكمه وأهوائه . . وبين إله تخضع له كل العقول وتعجز أمامه . .

والإيمان بالله قضية مثارة . . أجهد الناس أنفسهم فيها . . كل واحد يحاول أن يصل إلى وجهة نظره حول هذا الموضوع . . ومعنى هذا الجدل كله الذي يمضي ولن ينتهي . . ومعنى البحث عن أدلة عن القوة الموجودة وراء العالم المادي . . معناها أننا نعرف وجود الله بالفطرة . . وأنه يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد أن الله موجود . . وإلا لما أنهكت النفس البشرية قواها في هذا الجدل . . ولكان العقل البشري يعيش مطمئناً . . وسعيداً بالعلم المادي الذي خلق فيه .

ولكننا إذا نظرنا إلى أولئك الذين يعبدون المادة . . نجد أن نفوسهم في داخلها قلق رهيب . . رغم ما يحققونه من نجاح في العالم المادي ففي أمريكا والسويد مثلاً . . أعلى نسبة في الانتحار في العالم . . مع أن هذا يخالف المنطق والعقل . . فالذي يقوله المنطق . . إنه إذا كان العالم مادياً فقط . . وحصل هؤلاء الناس على

كل ما تستطيع المادة أن تهبهم إياه. لكانوا أسعد الناس نفساً. . ولكنهم بشهادة الإحصائيات هم من أشقى شعوب العالم نفسياً. . وأكثرها عرضة للجنون. . لماذا؟ لأنه يوجد في داخل النفس البشرية شيء ما يؤرقهم. . شيء ما لا يحقق لهم الانسجام بين هذه النفس والكون. . شيء ما يحول حياتهم التي فيها كل أنواع الترف إلى جحيم نفسي. . ذلك الشيء هو عدم الإيمان. . إنه يورثهم أشياء كثيرة. . تحطم النفس تحطيماً. . لماذا لأن الإنسان هنا منسجم مع الكون بحواسه الخمس التي يتصل بها. . بهذا الكون المادي. . ولكنه ليس منسجماً مع نفسه في فطرتها التي خلقت عليها في عبادة الله. . والإيمان به. . ومن هنا فإنه رغم انسجامه مع الدنيا. شقي داخل نفسه. . لأن هناك شيئاً داخل هذه النفس. . يؤرقه. . . . لا يعطيه الحياة الآمنة المطمئنة. . ذلك الشيء هو الإيمان. . بينما نجد ان هناك نفساً بسيطة. . لا تعطيها الدنيا كثيراً. . ولكنها تعيش في اطمئنان غريب، حياتها حلوة، قلبها سعيد، عيشتها مطمئنة. . يضيء داخلها نور الإيمان بالغد. . ولا يدخل إليها ظلام اليأس والقلق. . تلك النفس رغم أنها غير منسجمة مع العالم المادي في أنه لم يعطِها كل ما تطلب ـ إنما هي منسجمة مع داخلها بالإيمان بالله. . وهذا الانسجام يأخذ منها كل الشقاء الذي يقود إلى الجنون والانتحار. . ويدخل فيها الطمأنينة. . ويمنحها الحياة السعيدة.

إذن فانسجام النفس مع العالم المادي. . قد يورثها شيئاً من الحرمان. ولكن عدم انسجام النفس مع داخلها. . يحطمها تماماً. . ويقضي عليها. . ولذلك كما قلت فإن الإيمان بالله هو من أقوى ما نسميه الفطرة. . أو الإلهام. . أو الإحساس الداخلي الذي يجعل الإنسان منسجماً مع داخل نفسه. . مطمئناً في حياته. . وعدم الإيمان

يحطم الإنسان نفسياً . . رغم ما يحيط به من نعيم مادي . . وهنا يكون الشعور الفطري الذي يولد مع النفس البشرية . . بأن الله موجود . . وأنه خالق كل شيء . . ومدبِّر كل شيء . . يكون هذا الإحساس هو أقوى إحساس في داخل النفس وخارجها . . فلا يستطيع أن يعوضه الكون المادي . . وكما يمنحه للنفس البشرية . . ولا تستطيع أن تعوضه الأحاسيس الأخرى التي تولد داخل النفس البشرية . . ونسميها الفطرة . . كالحب والكره . . والجوع . . إلى آخره . . تلك الأشياء التي مهما تحدثنا عن أسبابها ومصدرها . . لا نستطيع أن نصل إلى الحاسة التي تسبب هذه الأشياء. فلا أحد يستطيع أن يصل إلى الحاسة التي تسبب الكره . . أو التي تسبب الحب . . أو التي تسبب الحنان . . إلى آخر هذا . . ومن هنا فإنَّ الإيمان بالله يولد فينا بالفطرة . . ثم بعد ذلك نحاول أن نخضعه لتفكير العقل . . وهنا يحدث التضارب . .

ولكن إذا كان يوجد داخل أنفسنا ما يؤكد وجود الله . . فما الذي أوجد هذا القلق في العالم . . وما الذي أوجد المذاهب المتضاربة . . ولماذا يحاول بعض الناس أن يثبت وجود الله . . وبعض الناس أن ينكر وجود الله ، ما سبب هذا التضارب العجيب الذي نراه ، ما دامت النفس البشرية يوجد فيها بالفطرة ما يؤكد وجود الله ؟ .

الحقيقة أن الذي صنع هذا هو ان الفلاسفة وكل من حاول أن يخوض في هذا الموضوع . . وضع الخيال مكان المنطق . . ووضع التصور مكان التفكير . . ومن هنا فإن العقل البشري في محاولته أن يخوض فيما هو أكبر من قدراته . . لم يستطع أن يقدم ما يريده . . فانطلق إلى الخيال . .

وأريد هنا أن أضرب مثلاً يوضح ذلك . . إذا أقفلنا باب هذه

الحجرة التي نجلس فيها. . ثم طرق أحدهم الباب فكلنا يعرف أن هناك شخصاً ما هو الذي طرق الباب. . هذه قدراتنا. . وهذه نقطة لا خلاف عليها. . فإذا بدأنا نسأل أنفسنا. . من الذي طرق الباب، هل هو رجل أو امرأة· قصير أم طويل، أبيض أم اسود، عربي أم اعجمي ؟ هنا تبدأ الخلافات. . لماذا ؟. . لأننا لا نحكم المنطق. . ولكن نحكم الخيال.

وهذا هو ما حدث بالنسبة للفلاسفة. . لقد أرهقوا أنفسهم في تخيل الله. . مع أن هذا التخيل. . وما يستطيع أن يهبه هذا العالم من مال وأمان. . إلى آخر ذلك. . ولعل أكبر دليل على ما أقول. . أنه في اكثر الدول المتقدمة مادياً. . أعلى نسبة من الانتحار والجنون. . خارج عن نطاق العقل البشري. . ومستحيل. . ذلك لأننا لكي نتخيل شيئاً ما. . فإن هذا الشيء يجب أن يشبه شيئاً في قدرات العقل. . فأنت حين تريد أن تشرح شكلاً معيّناً لإنسان. . ولا يستطيع أن يفهمك. . تقول له : إنه شيء يشبه الكرة مثلاً. . وحينئذ تكون قد نقلت هذا التصور من خارج قدرة العقل البشري إلى داخلها. . فاستطاع الإنسان ان يتصور ذلك الشيء. . ولكن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء. . إذن كل ما سيقوله الفلاسفة هو من باب التخيل الذي لا يمكن أن يدركه العقل. . ولا يخضع لمنطق. . ومن هنا فإننا لو حكمنا المنطق لما اختلفنا. . ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا بنفسه عما يريدنا أن نعرفه عنه. . وعن عبادته. . ولكننا نريد أن نتجاوز ذلك. . إلى أشياء ليست في قدرة العقل البشري. . فنضيع. . ولو أننا تمسكنا بما قاله لنا الله. . لكان في ذلك المنطق السليم. .

إذن فإن ما يؤكد وجود الله. . موجود في قلوبنا بالفطرة. . وطريقة عبادة الله وطاعته. . وكل ما يريدنا أن نعرفه عنه موجود في

رسالاته التي أرسلها بواسطة أنبيائه المختارين. . فالمنطق يقول اننا نتبع هذه الرسالات. . والخيال يقول : أننا نبحث عما فوق قدرات العقل. . في غيبيات حجبت عنا. . فنضيع ونتوه. . ذلك أن العقل له وظائف. . ليست من بينها عالم الغيب.

على أن رسالات الله سبحانه وتعالى للبشر. . هي في حقيقتها أكبر دليل على وجود الله. . ذلك أنه إذا كانت هناك قوة عليا. . قوة قاهرة قادرة. . تحكم هذا الكون. . وهي التي خلقته. . فإن العقل لا يستطيع ان يصل إلى هذه القوة. . بمعنى أنه لا يستطيع أن يقول ماذا يرضي هذه القوة. . وماذا يغضبها. . وكيف يقوم بالعبادة والشكر لها. . ذلك أن الله فوق قدرة العقل البشري. . ومن هنا كان لا بد أن تأتينا تعاليم العبادة من الله سبحانه وتعالى. . أي أن يقول لنا الله. . كيف نعبده. .فالإنسان حين يعبد الله تتم العبادة بالطريقة التي يحددها الله لعبادته. . أما إذا ترك ذلك للعقل البشري. . فإن كل إنسان سيحدد لنفسه طريقاً يعبد به الله حسب قدراته وفهمه. . وتتضارب الطرق. . وتختلف. . بل وتتناقض مع بعضها البعض. . فكيف يحدد المخلوق الطريقة التي يعبد بها خالقه. إن هذا انتقاص لقدرات الله وعظمته. . ومن هنا كان لا بد أن يعرف الإنسان طريقة عبادته لله. . عن الله سبحانه وتعالى. . ومن هنا نزلت الرسالات السماوية يقول الله للانسان : إنني أنا الله واذا اردت ان تعبدني فافعل كذا تدخل جنتي. . وإذا عصيتني وفعلت كذا وكذا فسيصيبك عذابي. . وأنا أحدد لك طريق العبادة حتى لا تضل ولا تضيع. . كان لا بد للرسالات السماوية أن تهبط إلى الأرض. . إلى الإنسان لتدله على الخير والشر. . والإيمان والكفر. . وتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود. .

إرسال هذه الرسالات في ذاته معجزة . . ذلك ان كل من عبد غير الله سبحانه وتعالى لم تصله رسالة لتبلغه طريق العبادة . . بل هو الذي اخترع هذا الطريق بعقله . فالذين عبدوا الشمس مثلاً . . لم تصلهم رسل من الشمس تقول لهم أعبدوني بطريق كذا وكذا . . وافعلوا كذا ولا تفعلوا كذا ، بل هم الذين حددوها حسب أهوائهم . . وكذلك الذين عبدوا النار . . وكل من عبد شيئاً آخر غير الله . . ولكن الله سبحانه وتعالى الذي هو فوق كل القدرات . . وفوق كل العقول . . أرسل الرسالات إلى البشر ليحدد لهم هو الطريقة التي يعبدونه بها . ومن هنا كان الفارق بين عقل يخضع الخالق لحكمه وأهوائه . . وبين إله تخضع له كل العقول وتعجز أمامه .

الإنسان وقدرات الكون

« كل القوى التي خلقها الله للإنسان هي أكبر منه كثيراً ولكنها مسخرة لخدمته . . فالشمس لا تستطيع أن تقول لن أشرق اليوم . . والمطر لا يستطيع أن يتوقف عن مد الأرض بالماء . . والرياح لا تستطيع أن تختفي . . ذلك أن هذه القدرات الهائلة رغم انها أكبر من البشر . . فإنها مسخرة لخدمته » . .

وأن الله سبحانه وتعالى قد أخبر عباده بما يريد أن يعرفوه عنه . . حيث إنه سبحانه وتعالى فوق كل العقول . . وليس كمثله شيء . .

ومن هنا فإن ما ورد في الرسالات السماوية عن الله سبحانه وتعالى . . ومن خلال ما أتاحه الله للعقل البشري أن يعرفه عنه . . وضع الله معجزات في القرآن تدل على أنه الخالق . . وتنبيء الإنسان بأشياء لم تكن متاحة للعقل البشري وقت نزول القرآن . . ولكنها بدأت بعد ذلك بالتدريج تدخل بعلم الله إلى نطاق العقل البشري . . أي إن الله سبحانه وتعالى حين أنزل كتابه أراد أن يكون هناك عطاء فيه لكل جيل . . حتى قيام الساعة . فالقرآن حينما نزل . . أعطى الذين عاصروه . . ثم أعطى الجيل الذي بعده . . ثم الجيل الذي

بعدهم . . ثم جيلنا هذا . . ثم بعد ذلك هو سيعطي الأجيال القادمة . . وكل عطاء مختلف . .

ولكن يجب أن نفرق بين شيئين في الإسلام . . الشيء الأول هو : الفرائض وأحكام الدين . . والشيء الثاني وهو ما يحتويه القرآن من معجزات وآيات . . وأشياء عن الكون . . وعن الخلق . . وعن كل ما احتواه القرآن من معانٍ جامعة شاملة . .

الجزء الأول وهو المناسك . . أو طريق العبادات وكيفيتها . . هذا الجزء لا تبديل فيه ولا تغيير . . ولا تفسير . . ولا إعادة تفسير . . وإنما يجب أن يؤخذ وينفذ كما أخذ ونفذ . . وفسر . . في عهد النبي صلى الله عليه وسلم . . أي إن الصلاة مثلاً . . لا يجوز لأي فرد مهما بلغ من العلم أن يبدل فيها . . وما يقال عن الصلاة يقال عن الصوم ، ويقال عن كل فروض العبادة . . تلك الفروض قد أُنزلت وفسرت . . وتم بيانها للناس وقت نزول الرسالة . . وهي تبين لنا كيف نعبد الله كما يريد الله سبحانه وتعالى أن يعبد .

أما الجزء الثاني وهو عطاء القرآن . . فكلما مر الزمن وجدنا للقرآن عطاءً جديداً . . وفي أشياء أو حقائق كونية كانت غائبة عنا . . ثم دخلت إلى منطقة العلم البشري بإرادة الله . . فأصبحنا نعيها ونفهمها . . وهنا أجد أن القرآن لا يتصادم أبداً مع حقائق الكون . . ولا يمكن أن ينشأ أي نوع من التصادم . . ذلك لأن الله هو القائل . . والله هو الفاعل . . والله هو الخالق . .

على أن هناك نقطة الغيب . . أو منطقة الغيب . . تلك التي اختص الله سبحانه وتعالى بها نفسه . . أو من ارتضى من رسله وعباده . . وتلك النقطة هي خارج العقل البشري . . أو فوق طاقة هذا

العقل . . وإذا دخلنا فيها . . تاهت العقول ، وانتقلت من الواقع إلى الخيال . . وهنا تضل وتبتعد عن الحقيقة .

ولقد أجهد الفلاسفة أنفسهم على مر السنوات في الوصول إلى وجود الله . . محاولين استخدام العقل بدلاً من الرسالات السماوية التي أنزلها الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا فإنهم أرادوا أن يستخدموا العقل فيما لم يخلق له . . ذلك أن العقل له وظيفة . . أو وظائف في الحياة . . ليس من بينها أن يصل إلى وجود الله بعيداً . . أو غير مستخدم الرسائل . . أو الرسالات التي أنزلها الله لعباده . . فهذه الرسالات قد وضع فيها الله سبحانه وتعالى الأدلة وبيّن فيها ما هو في قدرة العقل البشري . . منذ يوم خلقه . . الأدلة وبيّن فيها ما هو في قدرة العقل البشري . . منذ يوم خلقه . . إلى يوم القيامة . . ولكن الفلاسفة يريدون أن يتجاوزوا هذا . . بأن يقدموا للعقل البشري ما هو فوق طاقته . . هذا مستحيل . . فأنت حين تريد أن تجعل إنساناً يفهم شيئاً . . يجب أن تدخله في قدرة العقل البشري أولاً . . فإذا وصفت له شيئاً غامضاً مثلاً . . فان العقل لا يمكن أن يفهمه . . ولكنك لكي تدخل هذا الشيء في نطاق الفهم العقلي . . فأنت تحاول أن تقربه من شيء يفهمه . . كأن تقول مثلاً . . إنه شيء يشبه الكرة . . حينئذ فإنك نقلت هذا الشيء من خارج نطاق الفهم العقلي . . إلى داخل هذا النطاق . . واستطعت أن تجعل محدثك يفهم عن أي شيء تتحدث . . ولو أن الفلاسفة ألزموا أنفسهم بالمنطق والحقيقة . . لما كانت هناك مشكلة . . ولكنهم رفضوا ذلك . . بل أرادوا هم أن يحددوا أشياء لا تدخل في نطاق الحقيقة والمنطق . . باستخدام الخيال الذي لا يعتمد إلا على الهوى . . ولقد قال لنا الله في رسالته هذا هو الطريق إلى عبادتي . .

وشرحه لنا . . وبين لنا الثواب والعقاب . . وهذا دليل قوي على وجود الخالق . . ذلك أن الذين يعبدون الشمس والأصنام . . أو أي شيء غير الله . . فإن هذه الأشياء لا ترسل لهم رسالات تقول لهم . . أو تبيّن لهم . . أو تعلمهم طرق العبادة . . ولذلك لم نسمع عن رسول أرسلته الشمس ليهدي الناس . . مع أن الناس عبدوا الشمس . . ولم نسمع عن رسول أرسله صنم ليهدي الناس . . مع أن الناس عبدت الأصنام . . والأحجار . . والحيوانات . . وكل شيء في هذه الدنيا عبد بطرق ابتدعها الناس أنفسهم حسب أهوائهم . .

وإذا حكمنا المنطق وحده . . والعقل وحده . . فإن الاثنين كليهما لا يقولان لنا أن ندخل في أشياء هي فوق القدرة البشرية . . بالرغم من ذلك . . فإن الإنسان رغم عجزه يحاول أن يخترق هذه الحجب . . بطريق الجهل . . وليس العقل . . ومن هنا فإننا لا نجد أي مدرسة فلسفية حاولت أن تخترق الحجب إلى ما وراء المادة . . أو إلى العالم غير المادي . . قد وصلت إلى نفس النتائج التي وصلت إليها مدرسة أخرى . . بل إن كل مدرسة تصل إلى نتيجة قد تكون مخالفة . . أو مناقضة للمدرسة الأخرى . . ولم تصل مدرسة من هذه المدارس إلى نتيجة تقبلها كل العقول . .

ومن هنا . . فإن الرسالات السماوية قد حملت إلينا فوق الإثبات بوجود الله الأدلة على عدم وجود أي شريك لله سبحانه وتعالى في هذا الكون . . فهي أوجدت الدليل على وحدانية الله سبحانه وتعالى . . وأنه لا إله غيره . . وأن الله أحد . . ليس له شريك . . وذلك حتى لا يدخل إلى العقل البشري أن هناك وجوداً لأكثر من قوة كبرى خلقت هذا العالم وأوجدته . . وأوجدت كل شيء فيه . .

وأعطت العلم للإنسان ليسود في الأرض . . ومن هنا فهي نفت أن يكون هناك إله للسماوات . . وإله للأرض . . وإله للريح . . وإله للنجوم . . إلى آخر ما كان يتصوره العقل البشري في القرون الماضية . . وما زال بعض الناس يتصورونه حتى الآن . . بل إنها قالت إنه رغم أن القوة في العالم مختلفة . . أو موزعة . . فهناك الشمس مثلاً بقدراتها على الإنارة . . وعلى الدفء . . وعلى إنماء الزرع . . وعلى إحراق من يقترب منها . . كل هذه القدرات التي هي موجودة في الشمس . . بحيث إذا اختفت إلى الأبد أصبحت الحياة مستحيلة . . وهناك قدرات أيضاً في الريح والعواصف . . تدمر . . ثم هي تنقل السحاب من مكان إلى آخر . . وتبقى الحياة على الأرض بما فيها من مواد لازمة لحياة الإنسان كالأكسجين مثلاً . . بحيث إذا اختفت الريح من الأرض . . وانعدمت . . أصبحت الحياة مستحيلة . وهناك مثلاً الأمطار التي تعطي الأرض مصادر المياه . . والله خلق من الماء كل شيء حي ، إذا توقفت الأمطار . . جفت الأنهار . . وانعدمت الحياة على الأرض . . وهناك الأرض نفسها التي يعيش فوقها الإنسان . . إنها هي الأخرى قوة أو قدرة من قدرات الله . . إذا انفجرت هذه الأرض . . وتحطمت . ـ وتناثرت . . فإن الحياة تصبح مستحيلة .

كل هذه القوى . . وغيرها هي قوى . . أو قدرات . . تؤثر في حياة الإنسان تأثيراً جذرياً . . بل إن اختفاءها عن الكون قد يجعل الحياة منعدمة . . ولكن هذه القوى والقدرات . . وغيرها . . قدرة العلم . . في اختراع أسلحة مدمرة مثلاً . . تستطيع أن تفتت الكون . . أو تلوث الكون . . فتفني الحياة من على الأرض تماماً . . كل هذه القدرات أو القوى ليست في ذاتها آلهة . . وليست هي التي

تصنع أي شيء . . بل هي مسخرة لخدمة الإنسان . . والذي سخرها هو الله سبحانه وتعالى . . فالشمس ليس لها إرادة مثلاً تستطيع أن تقول : اليوم سأشرق . . وغدا لن أشرق . . لن أرسل أشعتي إلى الأرض اليوم . . بل سأحجبها عنها . . وأرسلها غداً . . الشمس لا تملك هذه القدرة . . لماذا ؟ . . لأن الله سبحانه وتعالى خلقها وسخرها لهدف معين . . ومن هنا فهي تقوم بوظيفتها فقط . . ولا تملك . . رغم أنها قوة قادرة هائلة . . لا تملك هذه الشمس التحكم في هذه القوة . . بل هي مسخرة لأداء وظيفة معينة لن يعطيها الله العقل لتفكر وتختار . . ولكن أعطاها الوظيفة والقوة . . والقدرة لتعمل لما خلقت من أجله . .

وما يقال عن الشمس . . يقال عن الريح . . وعن الأصنام . . وعن كل القوى الموجودة في العالم . . فلا الريح تستطيع أن تترك الأرض مثلاً وتذهب بعيداً . . أو أن توقف حركتها . . ولا الأرض تستطيع أن ترفض الدوران حول نفسها . . ولا أي من هذه القوى التي سخرها الله للإنسان تملك لنفسها أن تخرج عن الوظيفة التي سخرها الله من أجلها . .

بل إن الله سبحانه وتعالى سخر ما في السماوات والأرض للإنسان . . فنجد مثلاً حصاناً قوياً جامحاً . . يستطيع بقوته أن يقتل عدة أشخاص . . يستطيع أن يفتك بهم . . ومع ذلك نجد طفلاً صغيراً لم يبلغ العاشرة من عمره . . يمتطي هذا الحصان . . ويقوده إلى حيث يريد . . والحصان يمضي به . . ويطيعه . . فيطلب منه أن يرقد بإشارة معينة . . فيرقد . . ويطلب منه أن يتوقف فيتوقف . . ويقوده إلى حيث يريد . . وأنت تقول إن هذا الطفل فارس ماهر . . هذه وجهة نظر العلم الأرضي . . ولكن الحقيقة التي يجب أن

نتذكرها . . أن الله هو الذي سخر هذا الفرس بكل قدراته العضلية التي تستطيع أن تمزق هذا الطفل إرباً . . سخره لخدمة الإنسان . . وخدمة هذا الطفل . . ولو أن هذا الحصان غير مسخر . . وله فكر . . ويستطيع أن يتصرف . . لما استطاع طفل أو رجل مهما كانت قوته أن يمتطيه . . وأن يجعله يفعل كما يريد . .

هذه حقيقة كونية . . صحيح أن لركوب الحصان مثلاً أو الجمل . . أو أي حيوان آخر طرقاً معينة . . يجب أن يتعلمها الإنسان . . فتلك سنة الحياة . . ولكن كل هذه القوى مسخرة أولاً للإنسان . . ولو لم تكن مسخرة له . . لما استطاع أن يقترب منها . . رغم كل علوم الأرض . . وما تستطيع أن تهبه .

وما يقال عن الحصان . . يقال عن الإبل . . والبقر . .

إذن كل القوى في هذا الكون سخرها الله لخدمة الإنسان . . وقال الله سبحانه وتعالى لنا في رسالاته : أنا الله أقول لكم إنني خلقت في هذا الكون قوى خارقة أكبر منكم وأقوى . . وأشد لا تستطيعون السيطرة عليها . . ولا إخضاعها بعلمكم لتكون في خدمتكم . . فأنتم لا تستطيعون أن توقفوا حركة الشمس . . أو حركة الأرض . . أو حركة الريح . . وأنتم لا تستطيعون أن تسيطروا على غيركم من مخلوقاتي . . ولكني سخرت هذا كله لكم . . وجعلته في خدمتكم ليصنع لكم الحياة على الأرض . . بإذني وبأمري . . وجعلت هذه الأشياء مسخرة ليس لها عقول تفكر بها . . لأقول لكم إنني أنا الله خالق كل شيء . . وهذا هو خلقي أمامكم . . كل هذه القوى تخضع لي أنا . . وأنا جعلتها في خدمتكم . . جعلتها مسخرة لكم .

هذا ما قدمه الله في كتابه ليتدبر فيه الإنسان . . في وجود

الله . . ومع ذلك فإن الإنسان يترك هذا الكتاب . . ويذهب إلى ما لا يعرفه . . ويحاول أن يتفلسف بعقله . . ويخلق من خياله أشياء عن الكون . . وكأنما لا يكفيه ما أعطاه الله له مما يستطيع أن يعمل فيه العقل البشري سنوات وسنوات طويلة . .

ومن هنا فإن دخول العقل البشري في منطقة لا يعلم عنها شيئاً . . وتركه ما أعطاه الله له . . مما يدخل في قدراته . . تبدأ المدارس الفلسفية المختلفة كلها تبحث عن الله . . بعيداً عن الله . .

الأسماء والمعاني

إذا قلت كلمة بلا معنى . . فإن العقل لا يفهمها . . فالإنسان لا يستطيع أن يعقل إلا ما يعرفه . . فإذا قلت كلمة « الله » وجـدتها في كل لغة من لغات العالم . . ووجدت معناها واحداً في العقول . . إنه القوة القاهرة التي خلقت كل شيء . . ولكننا لم نر الله . . ومع ذلك فإن العقل يعرفه . .

كل ما في الكـون مسخر لـلإنسان . . هـذه هي الحقيقة التي أعلنها الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز . . وهذه هي الحقيقة التي نجدها في الكون . . فهناك أشياء كثيرة أكبر من قدرة الإنسان . . ومن قوته ملايين المرات . وتستطيع أن تدمره تـدميراً . . ومـع ذلك فهي مسخـرة لخدمتـه . . فالشمس والأرض . . والـرياح . . والمـطر . . .. والحيـوانات . . والأنعـام وكل مـا في الأرض . هو ليعـطي الإنسان الحياة عليها . . وييسرها له . . ولكن أحداً من هؤلاء جميعاً لا يملك الإرادة ليقول أنني لن أخدم الإنسان اليوم . . أو إنني سـأعصي أمر الله . . بأن لا أكون مسخراً لخدمة الإنسان . . فلا الشمس مثلاً لا تملك الإرادة . . لأن تقول إنني لن أشرق هذا الصباح . . أو إنني لن أرسل أشعتي للأرض اليوم . . ولا المطر يملك أن يقول إنه لن ينزل ليسقي

الناس الماء . . ولا الهواء يملك أن يقرر أن يبتعد عن الأرض ويحرمها من الأكسجين اللازم للحياة . . ولا الأرض نفسها تستطيع أن تتوقف عن الدوران . . أو تلقي بمن عليها . . ولا الفرس أو الجاموس . . أو الجمل على قدر قوتها تملك عصيان الخضوع لطفل صغير ضعيف يستطيع أن يقودها إلى أي مكان يريده . . تلك القيادة والسيطرة من الطفل على هذه الحيوانات القوية . . لا تأتي بأنه أخضعها بقوته هو . . ذلك أن قوته عاجزة أمامها تماماً . . ولا وجه للمقارنة . . ولكن الخضوع هنا يأتي بإرادة الله الذي سخر هذه الأشياء للإنسان في الأرض . .

والإنسان قد عبد قوى كثيرة في العالم . . على أساس أن هذه القوى آلهة . . وبعض الناس عبدوا الشمس . . وبعض الناس عبدوا النار . . وبعض الناس عبدوا الأصنام والأحجار . . إلى غير ذلك . . وقد جاء القرآن ليؤكد أن الله أحد . . لا شريك له . . وأنه ليس هناك إله في السماء وإله في الأرض . . وإله للريح . . وإله للنجوم . . لأن كل هذه الأشياء مسخرة للإنسان . . ولخدمة الإنسان . . ومن هنا فإنه إذا كانت هذه الأشياء لا تملك الإرادة لنفسها . . فإنها بالتالي لا تملك السيادة على غيرها . . ومن هنا فإنها خاضعة لقوة كبرى . . هي الله سبحانه وتعالى . : وأنها كلها آيات من آيات الله سبحانه وتعالى تدل على وجوده . . وعلى عظمته . . وقدرته . . وقوته .

بل إن الذين يكفرون بالله . . وينكرون وجوده . . هم في الحقيقة يثبتون أن الله سبحانه وتعالى موجود . . ذلك أن قولهم بأن الطبيعة هي منشأ الأشياء . . ومحاولاتهم إنكار وجود الله سبحانه وتعالى . . تعني أنهم يحاولون إنكار شيء موجود . . إذ إن الشيء

غير الموجود لا يحتاج إلى أي جدل . . أو إنكار . . ولا يكون موضع سؤال . . فكيف يطرح على العقل إنكار شيء غير موجود . . ما دام هذا الوجود أصلاً غير حقيقي . . ان الجدل يحدث عادة حول شيء موجود . . فهذا يؤكده . . وذاك ينكره . . ومن هنا فإن بعض الجدل . . والجدل الذي يثيره الكافرون حول هذا الموضوع . . أساسه شعورهم بالفطرة . . بأن الله موجود . . ثم محاولتهم إنكار ذلك باستخدام الهوى والأغراض الشخصية . . لأنهم يريدون أن يخضعوا شريعة الله لأهوائهم . . فمثلاً الجدل الذي يثار حول : هل الأرض كروية . . أو الأرض مسطحة . . أساسه أننا نرى أمامنا الأرض مسطحة . . ثم يأتي العلماء بعد ذلك ليقولوا إن الأرض كروية . . وينفي بعض الناس هذه الحقيقة . . إذن فالجدل هنا نتج عن أن الشيء نفسه موجود . . وأن هناك حقيقة تعرفها أذهاننا . . فالأرض موجودة . . وعيوننا تراها مسطحة . . ولكن لو لم تكن الأرض موجودة أصلاً . . لما نشأ الجدل أبداً عن : هل الأرض كروية أم مسطحة ؟. أي إن الأصل في إنكار الشيء هو وجوده أولاً . . فوجود الأرض ذاتها . . ثم وجودها أمامنا منبسطة . . بدأ معه إنكار كروية الأرض . . وكانت نقطة البداية . . فلو أن امرأة مثلاً ليس لها أطفال . . لا تجد إنساناً يقول لك إن هذه المرأة عندها أطفال . . وآخر يقول لك لا . . ويثور جدل حول هذا الموضوع . . ذلك أن أحداً لا يدخل في جدل . . عن شيء غير موجود . . ولكن هب أن هذه المرأة لها طفل . . وتخفيه عن عيون الناس . . بعض الناس رأوه . . وبعض الناس لم يروه . . هنا يبدأ الجدل هذا يؤكد . . وهذا ينفي . .

إذن الأصل في حدوث جدل حول شيء هو وجوده أولاً . . والأصل في محاولة الكافرين إنكار الألوهية . . وإنكار وجود الله هو

إحساس بأن الله موجود . . وإن هذه حقيقة واقعية . . وهم يحاولـون نفيها . . لأنها لا تصادف أهواءهم . . والعجيب أنهم في محـاولتهم لهذا النفي أو الإنكار لا ينتبهون إلى أشياء تكذبهم . . فمثلاً اسم الله تجـده في كل لغـة من لغـات العـالم . . بـل إن الاسم . . اسم الله سبحانه وتعالى في جميع اللغات له معنى واحد . . وهو الله خالق هذا الكون . . وخالق الإنسان . . وخالق كل شيء . . فمن الذي أوجـد هذا المعنى الموحد لهذه الكلمة في كل الـدنيا . . وبجميـع اللغات التي ينـطق بها أي بشـر . . وكيف يمكن أن يحدث ذلـك وهناك من ينكرون وجود الله سبحانه وتعالى . . كيف يمكن لقوة كبرى لها اسم في كـل لغة ينـطق بها أي لسـان . . وهذا الاسم في معنـاه . . وفي قدراته موحد في جميـع أنحاء العـالم . . ومع ذلـك فهناك من ينكـر الوجود أصلاً . . ويجادل في ذلك . . ومن الذي وضـع الاسم على كل لسان بهذه الصورة . . ومن الذي وضع معناه في كل العقول التي تنطق به . .

وإذا دققنا في علم اللغة . . وصلتها بالإنسان . . فإن أهم ما يـدرس الآن بـالنسبـة لاستخـدام اللغــة . . هـو اتصــال الكلمـات بالعقل . . وهذا الاتصال هو الذي يعطي التأثير الفكري للكلمـة في ذهن الإنسان . . أي إن المعنى يكون مـوجوداً أصـلاً في الذهن . . وتأتي الكلمة لتبرز صورة هذا المعنى إلى العقل . . فـإذا قلنا منـزل مثلاً . . فإن له معنى معيناً في عقولنا . . هو مكان يقيم فيه الناس . . مكون من عدة حجرات . . إلى آخر ذلك . . ومن هنا فإنه إذا ذكرت الكلمة . . قفز المعنى الموجود أصلاً في العقل . . لتكون مقبولة . . أما إذا قلت كلمة بلا معنى لم يلحظها العقل . . ولم يعرف وجودهـا جيـداً . . كأن تـأتي لـرجـل عـاش في أرض سهلة لم يـر جبـلاً في

حياته . . ثم تقول له كلمة جبل . . إنه لا يستطيع أن يتصور ما معنى جبل . . ولا يفهم شيئاً . . ذلك أنه لم يعقل هذا الشيء الذي يتحدث عنه أو تقوله له . . ومن هنا فهو لا يفهمه . . ولا يعرفه . . لأنه لم يدخل إلى عقله أولاً . ولكنك إذا قلت كلمة الله . . فإن العقول كلها تفهمها . . على أنها تلك القوة القادرة . . القاهرة . . التي خلقت الدنيا كلها . . ولكننا لم نر الله . فكيف نفهم هذه الكلمة ؟ . لو أن الله غير موجود فينا بالفطرة . . وغير موجود في عقولنا ونفوسنا . . لما فهمناها أبداً . . ولما أخذت هذا المعنى العالمي الذي ينسجم مع النفس البشرية . . إن يقيننا بوجود الله هو الذي يجعلنا نفهم هذه الكلمة . . ووجود الله فينا بالفطرة هو الذي يجعلها تدخل إلى عقولنا لأن أي كلمة لا يمكن أن تكون مفهومة إلا إذا كان معناها ومدلولها موجودين في العقل البشري أولاً . . بل إن وجود هذا المعنى يجب أن يسبق الكلمة نفسها فأنت لا تستطيع أن تحدث أحداً بكلمة جبل . . ويفهم ما تقول . . أو بكلمة « قوي » ويفهم ما تقول . . إلا إذا كان المعنى موجوداً أولاً في عقله . . قبل أن تنطق بالكلمة . . فالمعنى يوجد أولاً . . ثم بعد ذلك توجد الكلمات الدالة عليه . واذا راجعنا قواميس اللغة في جميع أنحاء العالم . . نجد أن الكلمات الموجودة فيها هي لأشياء موجودة أصلاً . . وان هذه القواميس تراجع كل عام لإضافة أسماء لأشياء وجدت . . ولم تكن موجودة في العام الذي قبله . . وذلك يعني أن الشيء يوجد أولاً ثم بعد ذلك يعطى تسمية . . بل إن هذا في حياتنا اليومية . . ملحوظ في كل شيء . . فهناك أسماء كثيرة في اللغة تضاف إلى القواميس كل عام . . وهناك علماء متخصصون يجتمعون في مجمع اللغة . . ليضعوا الأسماء لمعاني أو لأشياء وجدت . . ولم تكن موجودة . . إذن

فالأصل أن يوجد الشيء أولاً . . ثم يضع الإنسان له الاسم . . ووجود إسم الله سبحانه وتعالى في جميع لغات الأرض . . وبمعنى موحد في جميع أذهان البشر . . دليل على أن الله سبحانه وتعالى موجود قبل أن توجد البشرية نفسها . . وقبل أن ينطق لسان بأي لغة . .

وبهذا نكون قد وصلنا إلى حقيقتين هامتين . . الحقيقة الأولى أن نفي الشيء لا يمكن أن يكون مطروحاً إلا إذا كان الشيء نفسه موجوداً . . والثاني أن معنى أي شيء يجب أن يكون سابقاً لإسمه . .

الحقيقة الثالثة التي وصلنا إليها . . أننا إذا أردنا أن نعرف شيئاً عن الله سبحانه وتعالى . . فإننا يجب أن نصل إلى العلم الصحيح عن طريق ما أعطاه الله لنا . . مما يريدنا أن نعرفه عنه . . وألا نترك ذلك . . وندخل في متاهات الفلسفة التي تحاول استخدام العقل . فيما هو فوق قدرة العقل . . وبذلك تضل ولا تصل إلى حقيقة . .

فإذا اردنا أن نزداد قرباً من الله . . ومعرفة به . . فيجب أن نتجه إلى رسالات السماء التي أرسلها الله سبحانه وتعالى للبشر . . ليخبرهم بها عما يريد سبحانه وتعالى أن يعرفوه عنه . . وعن هذا الكون . . وعن الخلق والكون . . والحياة والبعث . . ذلك أن هذه الرسالات هي الطريق الوحيد لهذا العلم . .

يقول الله سبحانه وتعالى في قرآنه : إنه خلق آدم . . خلق الإنسان . . وآدم هذا من خلق الله سبحانه وتعالى . . لم يخلقه طفلاً له أب وأم . . وينمو . . كما هو الحال في المخلوقات البشرية التي نمت من سلالة آدم . . ولكنه خلقه رجلاً كامل الرجولة . . رجلاً لم يكن طفلاً في حياته في يوم من الأيام . . ووجد آدم نفسه مخلوقاً من

الله سبحانه وتعالى . . رجلاً كامل النمو . . تسجد له الملائكة . .

وقال لنا القرآن : إن آدم خلق من تراب . . ومن هنا فإن آدم في خلقه هذا لم يكن رجلاً له ماض معروف . . بل كان رجلاً بلا ماض . . دخل إلى الوجود بقدرة الله . .

ثم قال الله سبحانه وتعالى . . ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾[1] . . هنا قول الله سبحانه وتعالى هو منشأ العلم البشري . . فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية أخبرنا أن العلم البشري . . أو العلم الذي أعطيته لكم أيها البشر . . يجب أن يبدأ بالطريقة التي وضعها الله سبحانه وتعالى . . وهي تعليم الأسماء . . وانني لكي يبدأ العقل البشري الذي وضعته في آدم الحصول على المعرفة . . يجب أن يتعلم أولاً الأسماء . .

نأخذ نحن هذه القصة . . ثم نسأل أنفسنا أن الله سبحانه وتعالى قال : إن منشأ العلم الأسماء . . أي إن أي إنسان لا يستطيع أن يبدأ التعلم إلا إذا عرف معاني الأسماء تماماً كما علم الله آدم . . مبتدئاً بالأسماء . . نجد أننا بعد مرور أربعة عشر قرناً . . ورغم تطور كل وسائل الدنيا . . عاجزون عن أن نغير هذه الحقيقة التي أعلنها الله في القرآن . . فنحن حين يبدأ العقل البشري خطواته الأولى في طريق العلم . . يجب أن يبدأها بتعلم الأسماء مهما اختلفت طرق التعليم وفلسفاته في العالم أجمع . . فنحن نأتي إلى الطفل الصغير ونقول له : هذا كوب . . وهذا سلم . . وهذا طبق وهذه سيارة . . وهذا أسد . . وهذا فيل . . وهذه سماء . . وهذه أرض . . ثم بعد أن نعلمه الأسماء يستطيع هو أن ينطلق في العلم كما يشاء . . ولكننا لا

(١) البقرة ، ٣١ .

نستطيع . . ولن نستطيع أن نعلم الطفل شيئاً قبل أن نعلمه الأسماء . . لا نستطيع أن نبدأ بتعليمه أية معلومات . . لا تدخل إلى عقله إلا إذا تعلم معاني الأسماء . . بل إن الطفل يظل لفترة طويلة في حياته بالفطرة . . يتعلم الأسماء . . فإذا خرج طفل مع أمه في نزهة . . فإنه يسألها عن اسم هذا . . واسم هذا . . واسم هذا . . وإذا جلس في البيت فإنه يحاول أن يسأل عن اسماء أي شيء غريب يقع عليه نظره . . وكلمة ما هذا ، التي يقولها الطفل لأبيه وأمه . . هي أكثر الكلمات تردداً في سني حياته الأولى بالفطرة . . لماذا ؟ . . لأن هذا هو منشأ العلم . . مدخل العلم الذي وضعه الله سبحانه وتعالى للعقل البشري . . فإذا كنا بعد أربعة عشر قرناً . . لم نستطع أن نجعل الإنسان يتعلم شيئاً إلا إذا علمناه الأسماء أولاً . . والأسماء هذه هي ما علمها الله لآدم . . انطلاقاً للعقل البشري . . ليدخل إلى العلم والمعرفة . . فإذا كان المدخل من الله . . فهل يكون العلم البشري من غير الله ؟ . .

معنى الوجود

حينما ندخل المسجد . . نجد عباد الله جالسين معاً . . عقول كلها مختلفة في السن والثقافة والفكر والمركز الاجتماعي والطباع والعادات وكل شيء . . ولكنها كلها منسجمة في عبادة الله . . تركع معاً . . وتسجد معاً وتسبح معاً . .

لقد أجهد الفلاسفة أنفسهم على مر سنوات طويلة في محاولة الوصول إلى وجود الله . . باستخدام العقل بدلاً من الرسالات السماوية . . ومن هنا فإنهم أرادوا أن يستخدموا العقل فيما لم يخلق له . . ذلك أن العقل له وظائف ليس من بينها أن يصل إلى وجود الله بعيداً . . أو غير مستخدم الرسالات التي أنزلها الله لعباده . . تلك الرسالات التي وضع فيها الله سبحانه وتعالى الأدلة ، ووضع فيها ما هو في قدرة العقل البشري منذ يوم خلقه . . إلى يوم القيامة . . ولكن الفلاسفة يريدون أن يتجاوزوا هذا . . ويقدموا للعقل البشري ما هو فوق طاقته . . فيخرجون بذلك من نقطة العقل إلى الخيال والتخيل .

والرسالات السماوية قد حملت إلينا أن الله واحد أحد لا شريك له . . ولا إله غيره . ومن هنا فهي نفت أن هناك إلهاً للسماوات . . وإلهاً للأرض . . وإلهاً للريح وإلهاً للنجوم . . إلى آخر ما يمكن أن

يتصوره العقل البشري وما تصوره فعلاً خلال القرون الماضية . . بل أن هذه الرسالات قد اخبرتنا عن كل شيء في هذا الكون يدخل أو سيدخل في مقدرة العقل البشري .

فالشمس ـ مثلاً ـ لازمة للحياة . . وإذا اختفت أصبحت الحياة مستحيلة . . فلا الزرع سينمو . . ولا النهار يكون مضيئاً . ولا الأرض ستمضي في نظامها الحالي . . والهواء مثلاً إذا اختفى من الأرض . . انعدم الأكسجين اللازم للحياة وأصبحت الحياة بالنسبة للإنسان والحيوان . . بتكوينه الحالي مستحيلة . . وكذلك الماء والأمطار . . هي التي تعطي الحياة كلها للأرض . . بل إن الأرض نفسها التي عليها الحياة . . إذا تفتتت أو انفجرت فإن الحياة تنتهي .

ومع أن هذه القوى كلها ضخمة هائلة . . تعطي الحياة للإنسان على الأرض . . إلا أن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أن كل هذه القوة مسخرة لخدمة الإنسان رغم أنها أقوى منه ملايين المرات . . ورغم أنه لا يستطيع أن يصنعها أو يخلقها . . فلا الشمس تستطيع أن تقول إنني سأشرق اليوم ولن أشرق غداً . . أو إنني سأبتعد عن الأرض وأغير نظام الكون . . ولا الرياح تستطيع أن تترك الأرض إلى مكان آخر . . ولا الأمطار تستطيع أن تتوقف . . ولا الأرض نفسها لها أي اختيار فيما تحمل أو فيما يحدث فوقها . . لماذا ؟ . . لأن الله هو الذي خلق كل هذه القوى . وهو الذي سخرها لخدمة الإنسان . . ونحن حين نتدبر في خلق هذا الكون وقدرة الله . . نقف أمام هذه القوى الكبرى الهائلة التي هي بلا شك خارجة عن إرادة الإنسان . . بل وأقوى منه بلايين المرات . . ثم نتدبر . . هذه القوى الهائلة مسخرة لخدمة الإنسان . . لا تستطيع أن تعصي يوماً واحداً . . ثم نجد أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا في كتابه العزيز أن كل هذه

القـوى مسخرة لكم . . وهنـا نقطة يقف فيهـا العقل مع الحقيقة . . والحقيقة جاءت من الله . والوقوف هنا والتأمل أصبح في قدرة العقل بمـا أتاحـه الله لهذا العقـل من قدرة . . فـإذا بحثنا عن اسم الله . . وجدناه في كل لغة من لغات الأرض . . ووجدنا أن معناه واحـد في العالم كله رغم اختلاف معاني الألفاظ في اللغات . . ولكن اسم الله في كل لغة وكل لهجة موجود . . ومعناه تلك القوة القادرة القاهرة التي خلقت كل شيء .

إذن لفظ الله معناه واحد في كل العقول . . وفي كل اللغات . . فإذا أضفنا إلى ذلك أنه بالنسبة للبشـر فإن المعنى يـوجد أولاً . . ثم اللفظ . . ذلك أنني لا أستطيع أن أضع اسماً لما هو غير موجود . . بل إن الوجود يتم أولاً . . ثم يطلق الاسم . . وذلك لنعلم أن اسم الله الذي وجد مـع النفس البشريـة . . كان مـوجوداً قبـل أن توجـد هذه النفس البشـرية وهـو الذي خلقهـا وأوجدهـا . . بل أن تقبـل العقل البشـري لاسم الله سبحانـه وتعالى معنـاه ان هـذا العقـل يعـرف الله بالفطرة . . وان كان الله فوق قدرة العقول . . ومن هنا نعود مرة أخرى إلى الرسالات السماوية . . إلى الآية الكريمـة ﴿ **وإذ أَخَذَ رَبُّـكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُـورِهِمْ ذُرِّيَتَهُمْ . . وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ . . أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ . . قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا . . أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـذا غَـافِلِينَ . . أَوْ تَقُـولُـوا إِنَّمَـا أَشْـرَكَ آبَـاؤُنَـا مِن قَبْـلُ وَكُنَّـا ذُرِّيَـةً مِن بَعْدِهِمْ** ﴾[1] . . هذه الآية الكريمة وهي التي أخبرنا بها الله . . تدلنا كيف أن الله يوجد فينا بالفطرة رغم أنه فوق قدرة العقل . . فقد عرفنا وجود الله يقيناً . . وهذه المعرفة موجودة في داخلنا حتى وإن لم يدلنا

---

(١) الأعراف ، ١٧٢ .

أحد عليها . . ومن هنا فإذا ذكر اسم الله فإننا لا نحس أن إنساناً ينطق لفظاً غريباً لا معنى له . . ولكننا نحس أنه ينطق لفظاً نعرفه جيداً . . ونحس به في داخلنا . . ونحس بقدرته وقوته . . وبأن الحياة لا يمكن أن تنسجم إلا بوجوده . . وهناك أميون لا يقرأون ولا يكتبون ، وربما لم يقرأوا كلمة واحدة في حياتهم . . فإذا أخبرتهم عن أي شيء في هذه الدنيا . . سألوك . . ما معنى هذا الذي تتكلم عنه . . نحن لا نفهمك . . إلا كلمةِ الله سبحانه وتعالى فإنك إذا قرأتها عرفها الجاهل والمتعلم . . والصبي والرجل . . والكهل . . وكل إنسان يجلس أمامك . . ولن تجد أحداً يقف ليسألك : ماذا تعني بكلمة الله ∴ إننا لا نفهم هذه الكلمة ؟ لماذا . . لأن الله يوجد فينا بالفطرة . . ومن هنا فإن الطفل يعبده . . والإنسان البسيط الذي لم يقرأ كلمة في حياته يعبده . . والإنسان المتعلم يعبده . . والإنسان الذي تبحر في العلم ووصل إلى أعلى مراتبه يعبده . . وكل هذه العقول على اختلاف مستوياتها قد تعجز عن فهم مشترك لقضية من القضايا . . ولكنهم جميعاً لايوجد بينهم تصادم في عبادة الله . . .

وأنت تدخل إلى المسجد . . تجد عباد الله جالسين معاً . . عقول كلها مختلفة . . في السن والثقافة والفكر والمركز الاجتماعي والطباع والعادات وكل شيء . . ولكنها كلها منسجمة في عبادة الله . . تركع له معاً . . وتسجد له معاً . . وتقرأ له القرآن معاً . . وتسبح له معاً . . كل هذه العقول لا يمكن أن تجتمع وتنسجم هكذا إلا إذا كان الله موجوداً فينا بالفطرة . . وإلا مصداقاً للآية الكريمة ﴿ وإذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ . . وأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ . . قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾[1] .

(1) الأعراف ، ١٧٢ .

على أن بعض الناس يحاول أن ينكر وجود الله . . ومحاولة هذا الإنكار في حدها إثبات . ذلك أنك لا تنكر إلا ما له وجود . . فما هو غير موجود أصلاً لا تجد أنك محتاج إلى إنكاره . . فالأرض مثلاً ، بعض الناس يقول إنها مبسوطة ، وبعض الناس يقول إنها كروية . . ويحدث جدل . . أو حدث جدل في الماضي حول ذلك . . ولو أن الناس لم يروا الأرض أمامهم مبسوطة . . ولو أن العلم لم يثبت للناس أن الأرض كروية لما حدث هذا الجدل . . فالجدل هنا حدث لأن هناك واقعاً علمياً يخالف واقعاً تراه العين . . إذن فقبل النفي أو الجدل . . هناك وجود . . ومثل ذلك في كل شيء في الدنيا . . فإذا أردنا أن ننفي أو ننكر نظرية علمية . . فيجب أولاً أن تكون هذه النظرية موجودة لننفيها أو نحاول إنكارها . . وإذا لم تكن النظرية موجودة أصلاً . . فكيف ننفيها أو ننكرها ؟ . .

إذن محاولة إنكار وجود الله قد سبقتها الحقيقة . . وإن الله موجود فعلاً . . وكل من يحاول الإنكار إنما يحاول أن ينكر شيئاً موجوداً أصلاً ووجوده ثابت . . وإلا فما الذي يحاول أي كافر أن ينكره . .

محاولة النفي والجدل لا يمكن أن تتم إلا بالنسبة لشيء موجود فعلاً . . فإذا كان هناك إنسان لم يرزق في حياته بأطفال . . هل يثور جدل حول وجود أطفال له . . الجدل يثور إذا كان لهذا الإنسان طفل يخفيه . . بعض الناس رأوه ، وبعض الناس لم يروه . . وهنا يبدأ الجدل . . ولكن إذا لم يكن هناك شيء أصلاً . . ففيم سأجادل ؟ . الجدل هنا ومحاولة إنكار وجود الله . . هي إثبات بأن الله موجود . . وأن هناك من يحاولون لهوى في نفوسهم أن يجادلوا في هذا الوجود . . أو ينكروه .

ويمضي فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في حديثه فيقول : لقد عبد الإنسان قوى كثيرة على أنها آلهة . . عبدوا الشمس وعبدوا النار . . وعبدوا الأصنام والحجارة . . وعبدوا الإنسان كآل فرعون . . كل هذه الأشياء عبدوها وأطلقوا عليها أسماء مختلفة . . ولكن هل إذا قلت أي اسم من هذه الأسماء يقفز إلى النفس البشرية معناه ؟ . . أبداً . . فأنت إذا قلت ـ مثلاً ـ عن إله الشمس ، لم يفهم أحد شيئاً . . وإذا ذكرت اسم اللات أو العزى . . فإن العقول لا تفهمها . . وإذا قلت فرعون تجد كثيراً من الناس لا يدركون شيئاً . . إذن فكل هذه الآلهة زيف وإفك . . ولا يوجد إلا إله واحد هو الله سبحانه وتعالى . . الله الأحد . . الذي إذا ذكر اسمه . . وجدت كل عقل يفهمه . . وكل نفس تحسه . . وكل ما يشرك به من دون الله هو إفك وزيف . . بلا أصل ولا حقيقة إلا هوى النفس البشرية .

ثم نأتي بعد ذلك إلى نقطة هامة جداً . . لقد خلق الله آدم . . خلقه وأمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا إلا إبليس . .

عندما خلق الله آدم . . لم يكن لآدم ماض . . لم يكن له أب يعلمه . . أو أم تلقنه . . فمن الذي علمه . . الله . . وماذا علمه . . كما يقول القرآن ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[1] . .

ما معنى ذلك . . معناه أن منطلق العلم الذي أتاحه الله للعقل البشري . . يجب أن يبدأ بالأسماء ثم بعد ذلك ينطلق إلى علوم الدنيا . . إذن الله حدد لنا منطلق علمه الذي أعطاه للبشر . . قال : يبدأ علمي لكم بالأسماء . .

تعالوا لنرى اليوم . . بعد كل هذا التقدم . . هل خرج الإنسان عن الدخول إلى نقطة العلم من المدخل الذي حدده الله ؟ . أبداً .

---

(١) البقرة ، ٣١ .

إذا أردت أن تعلم الإنسان بكل صنوفه وأجناسه . . فيجب أن تبدأ بالأسماء أولاً . . تقول للطفل : هذه شمس . . وهـذا نور . . وهذا ظلام . . وهذا فيل ، وهذا أسد . . وهذا كوب . . وهذه سبوزرة . . أي إنك تعلم الطفل الأسماء أولاً . . ثم تتركه بعد ذلك ، فيستطيع أن يستوعب علوم الأرض كلها . . ولكن يجب أن يدخل من نفس المدخل الذي حدده الله للعلم البشري . . عندما علم آدم أول البشر . . علمه الأسماء أولاً . . بل إن أحدث طرق التعليم في العالم تقوم الآن بتعليم الطفل الأسماء والصور حتى يستطيع أن يستوعب العلم بسرعة . . ويتقدم إلى العلوم الأخرى .

إذن لم يخرج الإنسان في دخوله إلى العلم من نفس الطريقة التي حددها الله . . ولن يستطيع الخروج عليها . .

وبذلك نكون قد وصلنا إلى أربع حقائق هامة :

الحقيقة الأولى أن الله موجود فينا بالفطرة . . نعرفه ونحس بوجوده جميعاً . .

الحقيقة الثانية : أن الوجود يسبق الإسم دائماً وإن الوجود سابق لمحاولة النفي والإنكار .

ثالثاً : إننا إذا أردنا أن نعرف شيئاً عن الله سبحانه وتعالى . . فإننا يجب أن نصل إليه عن طريق العلم الصحيح الذي أعطاه الله لنا في رسالاته ولا ندخل في متاهات الفلسفة .

رابعاً : إن الله قد حدد لنا مدخل العلم البشري للإنسان عندما خلق آدم . . وإذا أردنا أن نتعلم فيجب أن ندخل نحن جميعاً . . مؤمنين وغير مؤمنين . . يجب أن ندخل جميعاً من الباب الذي حدده الله لنا وهو تعلم الأسماء . .

الإنسان والأمانة

إن السماوات والأرض والجبال . . رفضن أن يكون لهن اختيار في أمورهن . . وفضلن أن يكن مقهورات مسخرات لما يريده الله سبحانه وتعالى . . ولكن الإنسان حمل الأمانة وأخذ حرية الاختيار في : إفعل . . ولا تفعل . .

الله سبحانه وتعالى حينما يخاطبنا فإنه يخاطب العقول جميعاً . . ويجعل لكل منها قدراً من الفهم يحس به بقدرة الله وعظمته . . وهذا من إعجاز القرآن الكريم ذلك أن القرآن يخاطب وجدان كل البشر . . وأنت حين تخاطب الناس تجد أن معرفة الله سبحانه وتعالى موجودة فيهم بالفطرة . . ومن هنا فإنه إذا ذكر اسم الله فإننا لا نحس أن لفظاً غريباً يقال لنا . . ولكننا نحس يقيناً أن هذه المعرفة موجودة في داخلنا حتى وان لم يدلنا أحد عليها . . ونحس بقدرته وقوته . . وبأن الحياة لا يمكن أن تنسجم إلا بوجوده . .

وهناك أميون لا يقرأون ولا يكتبون . . وربما لم يقرأوا كلمة واحدة في حياتهم . . فإذا أخبرتهم عن أي شيء في الدنيا ، قالوا : ما معنى هذا الذي تتكلم عنه . . نحن لا نفهمك . . إلا كلمة الله سبحانه وتعالى . . فإنك إذا قلتها عرفها الجاهل والمتعلِّم والصبي . .

والرجل . . والكهل . . وكل إنسان يجلس أمامك . .

وحينما ندخل المسجد نجد عباد الله جالسين معاً . . عقول كلها مختلفة في السن والثقافة . . والفكر . . والمركز الاجتماعي . . والطباع . . والعادات . . وكل شيء . . إذا حاولت أن تتحدث إليها عن أي موضوع فإنها لا يمكن أن تفهمه . . ولا تنسجم معه . . ولكننا نجدها كلها منسجمة في عبادة الله . . تركع معاً . . وتسجد معاً . . وتسبح معاً . .

وينتقل فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي بعد ذلك إلى خلق الإنسان . . فيقول : إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم . . وقال للملائكة : اسجدوا له . . وآدم مخلوق بلا ماض . . لم يعلمه أحد شيئاً . . ولم يرث حضارة ولا علماً . . ثم قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ . . فالله قد أخبرنا في كتابه العزيز أن مدخل العلم إلى النفس البشرية هو الأسماء . . وحتى هذه اللحظة . . ورغم مرور هذه القرون الطويلة لا يزال مدخل العلم البشري للإنسان هو الأسماء . . فالطفل أول ما يتعلم . . يتعلم أسماء الأشياء . . ثم بعد ذلك يستطيع أن يستوعب من العلم ما يشاء ولكن مدخل العلم الذي أتاحه الله للبشر لا يتأتى إلا من المدخل الذي حدده الله . . وهو تعليم الأسماء أولاً . . فالطفل في أول سني عمره يستوعب الأسماء . . فأنت تقول له هذا كوب . . وهذا منزل . . وهذا شارع . . ثم بعد أن تعلمه الأسماء تتركه . . فيستطيع عقله البشري أن يحصل ما يتاح له من العلم معتمداً على نفسه . .

ثم نأتي بعد ذلك إلى نقطة تالية . . وهي أنه عندما خلق الله سبحانه وتعالى آدم حمله الأمانة . . وقال الله سبحانه وتعالى في كتابه

العزيز : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ . . فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا . . وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ . . إِنَّهُ كانَ ظلوماً جَهولاً ﴾[1] .

ما معنى الأمانة . . معناها الشهادة بالحق . . طواعية فيما لك اختيار فيه . . وبمحض إرادتك . . فإذا أودع إنسان لديك مالاً . . وأخذ عليك ورقة تثبت أنه أودع هذا المال . . فإن هذه ليست أمانة . . لماذا ؟ . . لأن هذه الورقة تثبت حقه . . وبالتالي فإنك إذا أنكرت يستطيع أن يثبت كذبك . .

هذه الورقة التي كتبتها . . أخرجتك من دائرة الاختيار . . فلم تعد تستطيع أن تقول نعم . . أو لا بمحض اختيارك . . لأن هذه الورقة سلبت منك حق الاختيار في الإنكار . . وأثبتت لصاحب الحق حقه . . وَمِنْ هنا فإن هذه ليست أمانة . . لأن جانب الاختيار فيها غير متوافر . . أو غير متاح . . ولكن إذا أعطاك أي إنسان مبلغاً من المال بينك وبينه ودون شهود . . ودون ورقة مكتوبة . . فإنه يكون قد أعطاك هذا المال كأمانة . . لماذا ؟ . . لأنه بينك وبينه معتمداً على تمسكك بالحق . . ومن هنا فإنك تستطيع أن تقول نعم . . أخذت منه هذا المال . . وتستطيع أن تقول لا . . لم آخذ منه هذا المال وتنكر ما حدث . .

إذن ما دام الاختيار موجوداً في أنك تستطيع أن تفعل هذا أو لا تفعله . . أي تستطيع أن تقول : إنني أخذت المال أو لم آخذه . . فهنا تكون الأمانة . . الاختيار موجود . . وأنت وأمانتك . . تستطيع أن تقول الحق . . أو تنكره . .

---

(١) الأحزاب ، ٧٢ .

فإذا قال الله سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ . . فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ﴾ . . فمعنى ذلك أن هـذه الأشياء كلها قد رفضت أن يكون لها اختيار في أمورها . . وفضلت أن تكون مقهورة مسخرة لما يريده لها الله سبحانه وتعالى لماذا ؟ . . لأنها جميعاً خافت من عواقب هذا الاختيار . . وما يمكن أن يؤدي بها إلى معصيـة . . أو إلى مخـالفـة لأمـر الله . . ولكن الإنسـان بعقله قبـل الأمانة . . أي قبل أن يكون له اختيار . .

ويستـطِرد فضيلة الشيخ محمـد متولي الشعـراوي . . ولنبسط المسألة قليلاً . . هب أن إنساناً جاءك . . ومعه مبلغٌ كبيرٌ من المـال . . وقال أنا أريد أن أضع هذا المبلغ عندك أمانة . . أحد أمرين . . إمّا أن يكون تصرفك كتلك المخلوقات التي رفضت أن تحمل الأمانة بأن تقول لنفسك : إن هذا اختيار صعب . . هذا الرجل سيتـرك لي ماله . . وقد تمتد يدي إليه . . وقد أنفقه فيما تغريني الحياة . . ثم بعد ذلك يأتي وقت السداد فلا أجد المال . . فحتى لا أقع في أي اغراء . . واقطع الشك باليقين فانني أرفض هذه الأمانة لأنها تعرضني إلى ما لا أستطيع أن أحتمله . . وإلى إغراء الشيطان . . ومن هنا فأنا لا أريد أي اختيار لنفسي . . ولن آخد هذا المال كأمانة . .

ولكن قد توسوس النفس والعقل بأنك تستـطيع أن تـأخذ هـذا المال وأنك قادر على أن تودعه عندك . . وربما قادر على أن تستخدمه فيما ينفعك . . ولكنك قادر أيضـاً حسب ظنك وعلمـك أن ترد هـذا المبلغ لصاحبه عندما يأتي وقت الحساب . . وتأخذ المال . . وتنفقه . . ثم يأتي وقت الحساب فلا تجد عندك منه شيئاً . .

إذن الأساس هنا هو الاختيار . . والإنسان عندما حمل الأمانة

معناها : أن أخذ حرية الاختيار في أن إفعل ولا تفعل . . ومن هنـا كانت الرسالات السماوية التي نزلت للإنسان . . لأنه قبل حمل الأمانة . . أي أخذ الاختيار في يده ليفعل أو لا يفعل . . أخذه وهو يحسب أنه قادر على أن يفعـل ما يـرضي الله . . وأن يتجنب ما يغضبـه . . ولكن إغراء الشيطان . . وبريق الدنيا . . وضعف النفس البشرية . . لم يكن في حسابه . . وبذلك كان ظلوماً . . أي ظالماً لنفسه . . في أنه اعتقد فيها أكثر من قدراتها . . وهـذا هو الغـرور الذي إذا دخـل النفس خرج منها الإيمان . . الغرور الذي جعل قارون يقول : إنمـا أوتيته على علم عندي . . أي إن الإنسان يغتر بنفسه وعقله وقدراتـه . . ناسياً أن هذه القدرات هي من عند الله . . وإنه هو الذي أعطاها له . . ويستطيع أن يأخذها منه . . جهول . . أي إن الإنسان جاهـل بالحقيقة . . التي حوله . . في أن الله سبحانه وتعالى هو القـادر . . والقـائل . . والمعـطي . . والمانـع . . والرافـع . . والخـافض . . والمعز . . والمذل .

وهكذا حمل الإنسـان الأمانـة . . ووضع الله سبحـانه وتعـالى أمامه البدائل في أن يفعل ولا يفعل . . وما دام الله سبحانه وتعالى قد قال للإنسان إفعل كذا . . فمعنى ذلك أنه في مقدور هذا الإنسان الا يفعـل . . والا لما قـال له إفعـل ومعنى قول الله سبحـانه وتعـالى للانسان لا تفعل كذا . . ان الإنسان قادر على أن يفعل . . وإلا لما قال له الله سبحانه وتعالى لا تفعل . .

إذن أخذ الإنسان الاختيار في افعل ولا تفعل . . فماذا حـدث . . صور له جهله أشياء كثيرة . . فخلق آلهة ليعبدها من صنع يديه أي إنه عبد مـا يستطيـع أن يصنعه . . ونسي أن الـذي يصنعه إنسـان لا

يمكن أن يكون هو خالقه . . أي خالق الإنسان ثم عبد الإنسان نفسه . . ثم حاول أن ينكر وجود الله . . وانطلق مع هوى نفسه . . جاحداً نعمة الله . . ترك الرسالات التي انزلها الله سبحانه وتعالى له ليبين له طريق الحق . . وطريق الحياة الطيبة الآمنة . . وأخذ يشرح لنفسه وحسب أهوائه . . فأصابه الشقاء في الدنيا . . وحلت به الكوارث . . وعاش عيشة ضنكا[1] . . ولكن لماذا فعل الإنسان ذلك ؟ .

(١) ضنك : فقر وحرمان .

الإنسان والاختيار

إذا أراد الله سبحانه وتعالى أن يتحدى البشر . . فإنه يتحداهم في أمر اختياري أي أن يستطيعوا القيام به بمحض اختيارهم وبكامل ارادتهم . . ذلك أن التحدي في أمر لا اختيار للإنسان فيه لا يكون تحدياً . . وفي القرآن تحديات كثيرة . . في أمور اختيارية . . لم يستطع الإنسان أن يواجهها . .

أخذ الإنسان حرية الاختيار في إفعل ولا تفعل . . فماذا حدث ؟. صور له جهله أشياء كثيرة . . فعبد كل شيء في الدنيا . . لا ينفعه ولا يضره . . عبد الأحجار والأصنام . . وعبد النار والشمس . . وعبد الحيوانات المفترسة . . والحيوانات الأليفة . وانطلق في جهل بعيداً عن الله سبحانه وتعالى الخالق لكل هذا الكون،. . المدبر له . . انطلق الإنسان جاحداً نعمة الله . . ترك الرسالات التي أنزلها الله سبحانه وتعالى له ليبين له طريق الحياة الطيبة الآمنة . وأخذ يشرع لنفسه حسب أهوائه . . فأصابه الشقاء في الدنيا . . وحلت به الكوارث . . ولكن لماذا فعل الإنسان ذلك .

إذا أردنا أن نصل إلى ما تريده النفس البشرية في هذه الدنيا . . فقد لخصه الله سبحانه وتعالى في شيئين أساسيين. . ووصف بهما

الذي يكفر . فيأتي الله ليقول له : إن هناك تحدياً ، تحدياً لك في كذا وكذا . . فهل تستطيع أن تفعله يا من تعبد نفسك . . أو تعبد الإنسان . . أو تعبد الحجر . . أو تعبد أي شيء آخر . . إذا كنت تريد أن تثبت حقيقة انك أنت وما تعبده . . ومن يعضدونك ويشدون أزرك . . لهم قطرة من القوة . . فإنني اتحداكم أن تفعلوا كذا وكذا . . والتحدي دائماً من الله سبحانه وتعالى للإنسان . . يكون في أمر اختياري . . إذا إن التحدي لا يمكن أن يكون في أمر اجباري يجبر الإنسان عليه . . بمعنى - مثلاً - إنني لا أستطيع أن أقول لإنسان إنني أتحداك - مثلاً - أن تطيل عمرك شهراً أو شهرين . . أو أتحداك ألا تصاب بمرض طوال حياتك . . إلى آخر هذه الأمور التي لا اختيار للإنسان فيها . . هنا يكون التحدي بالغ الصعوبة ، غير ميسر . . وأحياناً مستحيل ولا يعتبر متحدياً .

ولكن الله سبحانه وتعالى حينما يتحدى . . يأتي بأمر اختياري يمكن لأي إنسان أن يصل إليه ويتحدى فيه . . فالله سبحانه وتعالى مثلاً علم أزلا أن بعض الناس سيتخذمون العلم الذي أتاحه الله لعقول البشر . . وجعله في طاقتها . . سيأخذون هذا العلم ليعبدوه ويتخذوه إلهاً . . ويقولون انتقلنا من عصر الدين إلى عصر العلم . . ولذلك وضع الله في القرآن ما يرد عليهم . . قال لهم : إن العلم الذي تعبدونه من دون الله قد يوصلكم إلى أشياء تدهش عقولكم . . وتزعزع إيمانكم . . ولكني أقول لكم إن هذا العلم بهيلمانه[1] عاجز عن أن يخلق ذبابة . . هذا تحد رهيب للعلم الذي وصل إلى القمر . . وهو في طريقه إلى المريخ لن يستطيع أن يخلق ذبابة واحدة . .

---

(١) بهيلمانه : بقدراته العالية

ولو اجتمع لها علماء العالم كله . . وفعلاً كان هذا هـو التحدي . .
والتحدي هنا ، يقول : أنا سـأعطيكم من علمي مـا أريد . . لتصلوا
إلى القمر . . وتطيروا في الهواء . . وتفعلوا ما يعتبره العقل البشري
أشبه بالمعجزات . . ولكن لكي تعلموا أن هذا بأذني وأمري . . فإنني
سأمنع عنكم خلق أحقر شيء « الذبابة » . . ستصلون بعلمكم إلى ما
أريـد . . ولكن لو اجتمـع علماء العـالم كلهم ليخلقوا ذبـابة . . مـا
استطاعوا . . ولن يستطيعوا أن يصلوا بعلمهم إلى ما لا أريد . . رغم
بساطته . .

ويـأتي العلم ليحقق للعالم أشيـاء كثيرة . . حتى أن الانسـان
أصبح يملك وسائل نسف الأرض . . ووسائل الكترونية حديثة تفوق
في خدماتها كل ما تصورته العقول . . ونزل الإنسان فـوق القمر . .
وهو في طريقه إلى كوكب الزهرة . . إلى غير ذلك . . ولكن التحدي
ظل قائماً . . ذلك أن الإنسان لا يستطيع مع كل ما أوتي من العلم أن
يخلق ذبابة . . أو حتى جناح ذبابة . .

جاء التحدي في أشياء أخرى كثيرة في القرآن . . مثـل المطر
. . وبالرغم من كل الاختراعات الحديثة . . فإن العلم عاجز عن أن
ينشىء سحابة صناعية . : ويجعلها تمطر حيث يريد . . بل إن بعض
بلاد الدنيا تعاني من كثرة الماء . . وكثرة لأمطار . . والبعض الآخـر
يعاني من القحط الشديد. . والعلم لا حيلة له في ذلك . . مع أن الله
كشف لنا الطريقة التي يتكون بها السحاب . . ثم الطريقة التي ينزل
بهاالمطر . . وهنا إمعان في التحدي . . إذ إنه يعـطينا الأسبـاب . .
ويجعلنا عاجزين عن العمل . . ثم يتحدانا في أمـر اختياري كـإنزال
المـطر مثلاً . . وهـو أمر أبسط كثيـراً علمياً من الـوصول إلى القمـر
والمريخ . . ولكن الانسان لا يستطيع أن يقوم به . .

وصفاً بليغاً مدخل الشيطان إلى النفس البشرية . . وما يريده كل إنسان . . ذلك أن الشيطان حين أراد أن يغري آدم بمعصية الله سبحانه وتعالى قال له : هل أدلك على شجرة الخلد . . وملك لا يبلى ؟ . وقال الشيطان لهما ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِينَ ﴾[1] .

إذن الإنسان يريد شيئين في الدنيا . . الخلود والأموال التي لا تفنى . . ولا تنتهي . . إنه يريد أن يبقى في الدنيا خالداً لا يموت . . ويريد أن يكون له ملك يعيش فيه عيشة الترف التي يريدها دون أن تتأثر هذه الأموال بكل ما ينفقه . . ومن هنا كان مدخل الشيطان للنفس البشرية . . هذه الآلهة كلها التي اخترعها البشر هي إما جالبة للرزق . . أو دافعة للضرر مبعدة للموت . . وهي في الحقيقة لا تفعل هذا ولا ذاك . . ولكنه الخوف الذي يضعه الشيطان في النفس غير المؤمنة هو الذي يجعلها تعتقد أن هناك شيئاً في يد أحد غير الله سبحانه وتعالى . . وهنا نتوقف قليلاً عند هذه النقطة . . الله سبحانه وتعالى حين أخذ من آدم ذريته . . وأشهدهم على نفسه . . نجد في النفس البشرية أثر هذا حتى الآن . . فكل نفس بشرية تعرف الله بالفطرة . . ولا تحتاج لأي شرح إذا ذكرت لها كلمة الله سبحانه وتعالى . . ويكفي أن تذهب إلى الحج لترى اسم الله ينطق بجميع لغات الدنيا . . بكل لغة من لغات العالم . . والمعنى واحد . . وهؤلاء الناس الذين جاءوا من كل بقاع الأرض قد لا يستطيعون التحدث معاً . . أو التفاهم معاً ، لأنهم لا يفهمون بعضهم البعض . . ولا يتكلمون لغة بعضهم البعض . . ولكن إذا ذكر اسم الله أمامهم توحدت قلوبهم عند

(١) الأعراف ، ٢٠ .

كلمة الله . . وإذا أقيمت الصلاة توحدت وقفتهم جميعاً بين يدي الله . . مع أنهم غرباء تماماً . . ولكنهم متعارفون في الله . . بغير المعرفة المألوفة بين البشر . . وربما التقوا أياماً في الحج . . ثم بعد ذلك لا يلتقون . . ولكن رغم أنهم غرباء في كل شيء . . تجمعهم كلمة الله سبحانه وتعالى . . بل إن الله سبحانه وتعالى يمعن في التحدي . . ويقول سبحانه وتعالى في سورة مريم : ﴿ **رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ واصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً** ﴾[1] . . أي إنه تحدى في القرآن انه هو خالق كل شيء . . وهو الله لم تجد اسمه يطلق على أحد . .

وهذه نقطة يجب أن نقف عندها . . إن عادة الإنسان أن يطلق اسماً على كل شيء ، لا يوجد شيء في الدنيا بغير اسم إلا إذا كان مجهولاً للإنسان . . فكل شيء يطلق عليه اسم . . أنت لك اسم . . وإذا جاءك ابن تطلق عليه اسماً . . والظواهر الطبيعية لها أسماء . . وكل شيء في الدنيا له اسم . . والاختراعات الجديدة والاكتشافات الجديدة يضع الإنسان لها الأسماء . . حتى يستطيع الإنسان أن يعرفها أو يُعَرِّفها . . اذن فكل شيء في هذه الدنيا له اسم يميزه عن غيره . . ثمَ يأتي القرآن ويتحدى . . ويقول . . ان الله سبحانه وتعالى لن تجد له سميا . . أي لن تجد انساناً باسمه . . والتحدي هنا لمن ؟ . . التحدي في القرآن . . وفي الإيمان . . هو للمشركين والكفّار . . ذلك أن القرآن لا يتحدى المؤمن أبداً . . لأن المؤمن قد آمن وأطاع . . وهو ليس محتاجاً للتحدي . . ولكنه محتاج لما يزيده إيماناً . . وقرباً لله سبحانه وتعالى . . أما المحتاج للتحدي فهو ذلك

---

(١) مريم ، ٦٥ .

وفي القرآن تحديات كثيرة ليست هي موضوع حديثنا الآن . . إذ أن الحديث عن الله والنفس البشرية . . حين يأتي الله سبحانه وتعالى ويريد أن يتحدى الكُفَّار في شيء اختياري . . هل الله يريد أن يتحدى كافراً بعينه . . أو طبقة من الكفار بعينها كالعلماء أو التجار . . أم إنه يريد أن يكون التحدي شاملاً للجميع . . يستطيع أن يقدر عليه كل كافر . . حتى ذلك الذي لم يكتب حرفاً . . لم يعرف من الدنيا شيئاً . . يأتي الله سبحانه وتعالى ويجعل التحدي هنا عاماً في مقدرة كل فرد . . فيأتي بالآية الكريمة : ﴿ **رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا . . فَاعْبُدْهُ واصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً** ﴾ . .

أي إنه يتحدى في الأسم . . والاسم هنا شيء يقدر عليه كل إنسان . . بل ويستخدمه كل إنسان في الدنيا كلها . فكل فرد يستخدم الأسماء مهما بلغت ثقافته أو علمه أو جنسيته . . إلى آخره . . يأتي الله سبحانه وتعالى ويتحدى . . ويقول : إنني أنا الله . . وهذا اسمي سأختص به نفسي . . ولن تجد سمياً . . أي مسمى بهذا الاسم في الدنيا كلها . .

يأتي هذا التحدي وانا أوجه السؤال إلى كل من يقرأ هذا الحديث . . هل سمعتم عن إنسان اسمه « الله » . . هل سمعتم أن عقلاً بشرياً جرؤ على أن يطلق هذا الإسم على ابن له . . أو زوج له . . أو على أي شخص كان . . حتى الآلهة التي اخترعها الإنسان ليعبدها جعل لها اسماء ليس بينها اسم « الله » سبحانه وتعالى . . ولقد جاء هذا التحدي في أمر اختياري . . أي يستطيع أي إنسان أن يفعله بإرادته . . وفي أمر لا يستلزم أي مؤهلات . . أي يستطيع أي فرد في الدنيا أن يقوم به دون أن يكون له ثقافة أو علم . . أو فكر . .

أو أي شيء مميز . أي إنه تحد للبشرية كلها . . ومع أن هذا التحدي نزل منذ أربعة عشر قرناً . . ومع أن هناك أناساً يعملون ضد دين الله . . ويحاولون هدمه ، لم يستطع واحد منهم أن يطلق الإسم على فرد أو شيء . . أو حتى على إله يعبده . . وهكذا بقي التحدي . . وسيبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها . .

هذا التحدي لا يقدر عليه إنسان . . ولا يمكن أن يقوم به بشر مهما بلغ شأنه . . ذلك التحدي في أمر اختياري لا يستلزم أي صفات أو مؤهلات معينة . . وعجز الإنسان عن مواجهة هذا التحدي هو قدرة من قدرات الله سبحانه وتعالى وحده . .

إختياري لا يستلزم أي صفات أو مؤهلات معينة . . وعجز الإنسان عن مواجهة هذا التحدي

ورغم هذا التحدي الذي لا يجيب عليه أحد . . تجد بعض الناس يحاولون جاهدين إنكار وجود الله سبحانه وتعالى . . ويجادلون في ذلك جدالاً كثيراً . . ولكن هؤلاء الناس أنفسهم حينما تعجز الأسباب عن أن تدفع عنهم ضراً . . وحين يجدون أنفسهم في كرب لا يستطيعون الخروج منه . . أو في بلاء لا يستطيعون رده . . تجد ألسنتهم تصيح بلا شعور « يا رب » . . وتستنجد بالله الذي يحاولون إنكار وجوده . . كيف تستنجد نفس بالله سبحانه وتعالى . . وهي في نفس الوقت تحاول أن تنكر وجود الله . . إنها تجزع إليه . تستغيث بالخالق . . بالقدرة . . بالقوة . . بالذي يقول كن فيكون . . كيف يتم ذلك ؟ . .

الكون والإنسان

كل ما في هٰذا الكون مسخر لخدمة الإنسان ولكن ماذا فعله البشر ليتم ذلك . . وكيف يستطيعون أن يسخروا لخدمتهم من هو أقوى منهم ملايين المرات . . إن كل هذه الأشياء تستطيع أن تغني البشر في ساعات قليلة . . وربما في لحظات قليلة . . ولكنها خاضعة ذليلة لخدمتهم . .

إن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالتدبر في الكون . . ولماذا يأمرنا الله بهذا ؟ . . لو أن في هذا الكون دليلاً واحداً على عدم وحدانية الله . . وقدرته ووجوده . . ما أمرنا الله أن نتدبر في الكون . . وأن نتدبر في مخلوقاته . . وأن نتدبر في أنفسنا . . لماذا ؟ . . لأن الذي يعرض عليك شيئاً فيه أدنى شك . . لا يقول لك إفحصه جيداً . . أو تدبر فيه . . إنك إذا أردت أن تعلم عن أي شيء تراه . . فإن صاحب الشيء إذا لم يكن موقناً مما يقوله لك تدبر . . وانظر جيداً . . وافحص جيداً . . وإنما يحاول بشتى الطرق أن يجذب انتباهك عن ذلك الشيء الذي تنظر إليه . . حتى لا تتبين فيه أي نقص أو عيوب موجودة . . إنما الذي يقول لك تدبر . . وفكر . . وانظر . . موقن من إتقان عمله . .

ولأضرب مثلاً بسيطاً لأقرّب هذا إلى الأذهان . . إذا دخلت لتشتري أي شيء في هذه الدنيا . . أي شيء . . أمامك واحد من اثنين . . إما أن يكون هذا الشيء متقناً إتقاناً بديعاً . . وحينئذ يقول لك صانعه . . إفحصه جيداً . . ويطلب منك أن تفحصه مرات ومرات . . لتتبين دقة الصنع . . وتعرف متانة الشيء وكماله . . ولكن إذا كان الشيء ناقصاً . . أو فيه عيوب . . فإن صانع الشيء الذي يحاول أن يغشك أو يخدعك . . يفعل كل ما يستطيع من الحيل ليأخذ انتباهك بعيداً عن ذلك الذي في يدك . . حتى لا تتبين عيوبه ونواقصه .

والله سبحانه وتعالى يطلب منا في قرآنه الكريم . . أن نتدبر الخلق . . أن نتدبر الكون . . ويقول إن هذا الكون فيه آيات بينات . . ويقول : إن في خلقكم وخلق السموات والأرض آيات بينات . . وفي أنفسكم . . لماذا يقول الله ذلك ؟ . . إذا لم يكن قائل هذا الكلام هو خالق إلكون . . وعارفاً لاسراره أفلا يخشى أن تكون هناك عيوب ونواقص . . وأشياء لا يعرفها . . قد يأتي التدبر فيها بنتيجة عكسية . .

ولكن الله سبحانه وتعالى هو الخالق . . وهو القائل . . وهو العالم . . ومن هنا فهو يعرف دقة ما خلق . . وإعجاز ما خلق . . فيقول لنا تدبروا في هذا الكون . . انظروا فيه . . فستجدون آيات وإعجازاً لخلقي وقدرتي . . وفي أنفسكم . . ويقول سبحانه وتعالى ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ . . وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ** ﴾[1] . . أي آيات تلك التي يتحدث عنها الله سبحانه وتعالى ،

---

(١) فصلت ، ٥٣ .

إن لم يكن هو الذي خلقها بإتقان وإعجاز . . ولا يملك البشر أمامه إلا أن يسجدوا لقدرة الله سبحانه وتعالى في كونه . . وفي خلقه .

إذن هذا التحدي في التدبر في آيات الكون . . والتدبر في الخلق . . والتدبر في أنفسنا . . لا يمكن أن يحدث إلا إذا كان القائل هو الخالق . . هو الذي وضع آيات . . ومعجزات في هذا الكون . . فما الذي يريدنا الله أن نتدبره إلا آياته في الكون ؟. وإذا لم يكن الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون . . فكيف يعرف أسراره كلها . . ويعلم أن فيها آيات ومعجزات ؟. . إن الذي خلق . . هو الذي قال . . هو الذي أعجز . . سبحانه وتعالى . . ومن هنا فهو يطلب منا أن نتدبر . . لنرى من الآيات ما يجعلنا نسجد لعظمة الله سبحانه وتعالى وقدرته . .

نأتي بعد ذلك إلى نقطة أخرى . . الله سبحانه وتعالى أخبرنا في قرآنه الكريم انه سخر كل ما في هذا الكون لخدمة الإنسان . . تعالوا نتدبر قليلاً في هذه الحقيقة الهامة . . كل ما في الكون يخدم الإنسان . . الحيوان . . والجماد . . والشمس . . والقمر . . والنبات . . كلها تخدم الإنسان . .

والإنسان ليس هو الكائن الوحيد الحي في هذا الكون . . فالنبات له حياة . . والحيوان له حياة . . والإنسان له حياة . . ولكن كلا منها تختلف عن الأخرى .

تعالوا نتدبر في خلق الله . . الله سبحانه وتعالى جعل كل شيء مسخراً لما فوقه . . الجماد مثلاً بكل صوره مسخر لخدمة ما فوقه من الخلق . . وهو النبات والحيوان والإنسان . . على أن التمييز . تمييز الخالق . . وليس تمييز المخلوق . . بمعنى أن الله سبحانه وتعالى هو

الذي سخر . . ولكن الإنسان بقدرته . . وعقله . . وقوته . . عاجز عن أن يسخر . . والدليل على ذلك أن هناك أشياء مسخرة للإنسان . . والحيوان . . والنبات . . أقوى منه ملايين المرات . . ولا يستطيع أن يوجدها . . أو أن يسيطر عليها . . الشمس والنجوم . . والكواكب . . والأرض . . مسخرة لخدمة النبات . . والحيوان . . والإنسان . . الشمس لا تستطيع أن تقول إنني سأشرق هذا اليوم على جزء من هذا الزرع لأعطيه الحياة والنمو . . ولن أشرق على جزء آخر ليموت . . فالشمس بقدرتها الهائلة . . وقوتها التي لا يستطيع أن يقترب منها العالم أجمع . . مسخرة لخدمة النبات . . تشرق عليه . . وتعطيه الحياة والنمو . . وتغرب عنه . . ليتم دورته . . وهكذا . . وهي في هذا الاختيار لها . . وكذلك الرياح . . والأمطار . . والأرض . . نفسها . . كلها مسخرة لخدمة النبات والحيوان والإنسان . . الأرض إذا وضعت فيها الحب لا تستطيع أن تقول لن أعمل على إنماء هذا الحب وتغذيته . . ولكنني سأغذي هذا الحب . . وكذلك المطر لا يستطيع أن يقول سأنزل هنا اليوم . . ولن أنزل غداً . . أو لن أنزل في العام القادم . . كل هذه الأشياء مسخرة ليس لها أي اختيار . . وهي تعطي عطاء متساوياً للجميع بلا تمييز . لأن الله سبحانه وتعالى هو الذي سخرها . . وهو الذي جعلها في خدمة أنواع الحياة التي هي أرقى منها . . كالنبات . . والحيوان . . والإنسان . . وليعلن للعالم أجمع أن هذه الأشياء هي مسخرة بقدرته سبحانه وتعالى . . وبعلمه . . وبكلمة كن . . جعلها أقوى من الإنسان . . والحيوان . . والنبات . . ملايين المرات . . ومع ذلك هي في خدمتهم جميعاً . . لا تستطيع يوماً واحداً أن تمتنع أو ترفض أن تقوم بخدمتهم رغم قدرتها . . وضعف من تخدمهم من البشر . . والنبات والحيوان .

هذه واحدة . . فإذا انتقلنا إلى النبات . . نجد أنه مسخر لخدمة من فوقه في الخلق . . وهما الحيوان والإنسان . . والحيوان يستطيع أن يأكل من النبات كما يريد ويحطمه كما يريد . . ولا يستطيع النبات أن يمنعه من ذلك أو يقول له لا . . لن اعطيك طعاماً اليوم . . سأمنعه عنك . . أو يبعده عنه . . إذا أراد به ضراً . . وكذلك بالنسبة للإنسان . . فإن النبات مسخر لخدمته . . عطاء له عندما يريـد . . لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً أمام إرادة البشر . . حتى في إهلاكه وإفساده . . إذن فالنبات مسخر لخدمة ما فوقه . . لا يستطيع له نفعاً ولا ضراً . . وإنما يعطيه عطاء بلا حساب . . ويكون في خدمته دائماً كلمـا أراد . . حتى إذا أراد له هلاكاً . . فالصبي قـد يأتي بفـأس أو منشار . . ويصل إلى شجرة ضخمة هائلة . . ويظل يقطع فيهـا عدة أيـام حتى تسقط . . ولكن الشجرة رغم ضخامتها وقوتها . . حتى إنه إذا سقط غصن منها على رجل أهلكه . . وإذا سقطت الشجرة نفسها على عدة رجـال أقويـاء أهلكتهم . . رغـم أن هذه الشجـرة تملك هذه القـدرة الهائلة على البشر . . فإنها لا تستطيع أن تأمر غصناً منها ليسقط . . فيهلك صبياً أو رجلاً يقطعها بفأس أو منشار . . ولا تستطيع أن تـأمر جذعها أن يسقط على رجال يقومون باقتلاعها من جذورها . . ومن هنا فهي تملك القـوة . . ولكنها لا تملك القـدرة . . لمـاذا ؟ . . لأنهـا مسخرة لخدمة الإنسان والحيوان . . رغم قوتهـا الهائلة . . وقـدرتها على التدمير . . إلا أنها تقف عاجزة تماماً أمام الإنسان . . لماذا ؟ . . لأن التسخير هنا من الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا فلا القوة لها قيمة . . ولا القـدرة لها قيمـة . . وإنما الأمـر جميعاً للقـائل . . وهـو الله سبحانه وتعـالى . . والقائـل هنا سخـرها لـلإنسان . . فهي مسخـرة له . .

إذا انتقلنا بعد ذلك إلى الحيوان . . نجد أنه أرقى حياة من النبات . . فقد منحه الله الحواس . . ومنحه قدرة على الحركة . . ومن هنا فهو أعلى خلقاً من النبات . . ومن الجماد . . وكل خلق تحته مسخر له . . لخدمته . . ولكن الحيوان نفسه مسخر لخدمة الإنسان . . وقد يكون الفرس . . أو الجاموسة . . أو الثور . . أو الجمل . . أو أي حيوان آخر يملك من القدرة والقوة ما يستطيع أن يحطم به أقوى رجل في العالم ويهلكه . . ومع ذلك . . فإن صبياً صغيراً يستطيع أن يقود الجمل . . أو الفرس . . أو الثور . . إلى حيث يريد . . وهو طائع له . . لا يستطيع أن يعصيه . . إذا تدبرنا في ذلك . . فإن العقل يقول ما دام الحيوان هو الأقوى . . فهو الذي يتحكم ويفرض ما يريد . . ولكن الله سبحانه وتعالى الذي أراد ذلك سخر الحيوان القوي فجعله ضعيفاً ذليلاً أمام الإنسان الذي يقل عنه قوة وقدرة . .

إذا انتقلنا بعد ذلك إلى الإنسان . . فله حياة أرقى من النبات . . والحيوان . . لماذا ؟ . . لأن له فكراً . . له عقلاً . . وله اختيارات . . ومن هنا فهو أرقى ما خلق الله في الدنيا . . رغم قدرة الشمس . . وقوة الريح . . وجبروت الأمطار . . وضخامة النبات . . والقدرة البدنية للحيوان . . فإن هذا الإنسان أرقى هؤلاء جميعاً . . وكل هذه الأشياء مسخرة لخدمته . . بإرادة الله . . وليس بإرادة الإنسان .

فإذا كانت مخلوقات الدنيا هي : الجماد . . والنبات . . والحيوان . . والإنسان . . وكل خلق منها يعلو على الآخر . . فيكون مسخراً له . . وهذا لا يتوقف على القوة . . ولا على الحجم . وإنما على إرادة الله . . الجماد يخضع للمخلوقات الأرقى منه . . وهي

النبات والحيوان والإنسان . . والنبات يخضع لمن فوقه . . وهما الحيوان والإنسان . . والحيوان . . يخضع لمن فوقه وهو الإنسان . . فلمن يخضع الإنسان؟ . يخضع لخالقه . . يخضع لله سبحانه وتعالى ليكون هناك انسجام في الكون . . كل شيء يخضع لما فوقه . . ومن هنا يقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[1] .

ومن هنا كان هدف الإنسان أن يخضع لخالقه الذي سخر له كل ما في الكون . . وهذا هو الذي يعطي الحياة معناها الحقيقي . . لأن كل شيء يخضع لما فوقه . .

ونحن حين نتدبر في الكون نرى كيف أن الإنسان يجب أن يخضع لخالقه . . ليتم الإنسجام في الكون . . وعلامة الخضوع هي العبادة . . وهذا هو هدف العقل الأول في أن يعرف ماذا يجب أن يؤدي وأن يتدبر في الكون ليعرف أن كل شيء يجب أن يخضع لما فوقه . . وأن الإنسان يجب أن يخضع لخالقه . . الذي خلق هذا الكون كله . . وسخره لخدمته .

ولكن العقل البشري بنسى الله . . ينسى كل هذه المعجزات . . ويتحدث عن العلم . . وعصر العلم . . فماذا استطاع العلم أن يحقق للبشر ؟ . .

---

(١) الإسراء ، ٧٠ .

الإنسان والعلم

العلم لا يستطيع أن يخلق مقومات الحياة . . فما بالك بالحياة نفسها . . إن الإنسان عاجز عن أن يخلق غلافاً جوياً للقمر مثلاً . . أو بحيرة من الماء اللازم للحياة . . والزرع . . أو أن يجعل حبة تنبت على يدك . . بدلاً من أن تنبت على الأرض . . والقرآن الكريم يقول لنا إن هناك مضلين . . سيأتون ليجادلوا في خلق الإنسان .

إن العلم يتحدد في شيئين رئيسيين . . علم مادي يخضع للتجربة البحتة . . لا يدخل فيه هوى البشر . . ذلك العلم هو الذي يتناول المادة فقط . . وهو الذي يمكن أن يفحص في المعمل . . وتجري عليه التجارب . . وليس فيه هوى النفس البشرية . . وهذا العلم هو الذي أتاحه الله للعقل البشري . . وطلب منه أن يجتهد فيه . . ووعد الله بأن يكشف آياته في الكون لأولئك الذين يعملون . . ويبحثون . . ويجرون التجارب . . ويجتهدون . . وعلم آخر هو علم تدخل فيه الأهواء . . وذلك ما لم يدخل فيه معمل . . ولا يمكن إجراء تجارب عليه . . وهذا العلم مثل النظريات الفلسفية والسياسية . . وكل شيء لا يخضع لتجربة المعمل . . هذا العلم تختلف فيه الأهواء وتتصارع . . وسيظل الصراع بينها إلى يوم القيامة . . لأن هذا

العلم لا يستند على أسس مادية موضوعية بحتة . . وإنما تدخل فيـه الأهواء الشخصية .

النوع الأول من العلم . . صاحبـه يظل يعـاني حتى يصل إلى هدفه . . فإذا وصل إلى الهدف استفاد منه الناس كلهم . . فـالعالم مثلاً الذي يجـري تجارب في معمله . . على اختـراع جديـد . . أو شيء جديد . . يظل يسهر ليـالٍ طويلة حتى يصل إلى نتائج . . فإذا وصل إلى نتائـج . . استفادت منهـا البشريـة كلها . . وإذا أردنـا أن نضـرب مثلاً لـذلك . . فهنـاك مثلاً اكتشـاف الكهربـاء . . واختراع الـراديو والتليفـزيون . . والتليفـون . . إلى آخـر هـذه الأشيـاء التي اقتضت بحثـاً من أصحـابهـا . . فـإذا وصـل البحث إلى نتيجـة . . استفادت منها البشرية كلها . .

أما النوع الثاني من العلم . . فهو الذي يخضع للهوى . . فإن صاحبه هو الذي يستفيد . . وغيره يعاني . . ذلك إنه يضع العلم على هواه . . وعلى أساس ما يرضيه هو . . ومن هنا فإن صاحب النظرية الفلسفية أو السياسية . . لا يعاني شيئـاً بقدر مـا يعاني أولئـك الذين يخضعون لها . . أو ينفذونها . .

ويستـطرد فضيلة الشيـخ محمـد متـولي الشعـراوي بعـد هـذه المقدمة القصيرة ليقول : ماذا قدم العلم للبشـرية ؟. تعـالوا نـنـاقش ذلك من واقع التجربة العلمية . . إن أساس الحياة البشريـة من خلق الله سبحانه وتعالى لم يتغير . . ولم يتبدل . . ولا يستطيـع العلم أن يجد له بديلاً . . وإنما العلم يقدم الرفاهية للبشر . . أي إنـه يجعل الحياة أكثر سهولة . . وأكثر نعومة . . ولكنه لا يعطينا مقومات الحياة . . بل إن الله سبحانه وتعالى علمـاً منه بـظلم الإنسان لـلإنسان . .

جعل مقومات الحياة في يده . . وما أعطاه منها ليد البشر أعطاه بشكل لا يجعل الإنسان قادراً على هلاك الإنسان باستخدام أسباب الخلق . .

ولنشرح هذه النقطة قليلاً . . مقومات الحياة من كرة أرضية . . وشموس . . ونظام كوني لا دخل للإنسان فيه . . ولا يستطيع . . ولن يستطيع الإنسان بعلمه أن يتدخل ليخلق كرة أرضية جديدة . . أو شمساً جديدة أو نجوماً جديدة أو سماوات جديدة . . إلى آخر هذا . . هذا خلق الله . . والعلم إذا استطاع أن يكتشف الآيات في هذا الخلق . . يكون قد تقدم تقدماً هائلاً . . ولكنه لن يستطيع أن يخلق شيئاً . أو يبدله . . أو يغيره . . وإذا كنا نتحدث الآن . . ونحن في عصر العلم . . فتلك حقيقة هامة . . لا يستطيع أحد الجدال فيها . .

نأتي بعد ذلك إلى مقومات الحياة على الأرض . . الهواء . . والماء . . والطعام . . لوازم ثلاثة لحياة الإنسان على الأرض . . الإنسان بطبعه لا يستطيع العيش بدون الهواء أكثر من دقيقة أو دقائق . . ولذلك أخرج الله الهواء من قدرة البشر على التحكم في البشر . . فالله شاء أن يكون الهواء مباحاً للناس . . جميعاً . . لا يستطيع واحد أن يمنعه عن مجموعة من الناس فتهلك . . بل إنه أخضع الهواء لعدله . . فكان متساوياً بين الناس جميعاً . . فقيرهم وغنيهم . . عظيمهم وذلك الذي لا يملك من أسباب الدنيا شيئاً . . فهم جميعاً يتنفسون بنفس السهولة . . وبنفس الطريقة دون أي عناء . . يصلهم الهواء إلى حيث هم وأينما كانوا في حجرات مغلقة . . أو في الطريق . . أو في السيارة . . أو في أي مكانٍ في العالم . . فإن الهواء يصلهم سهلاً . . ميسراً . . متاحاً . . للجميع . . وهذا عدل الله سبحانه وتعالى . . ولا دخل لبشر فيه . .

نأتي بعد ذلك إلى الماء . . وهو ما يستطيع الإنسان أن يعيش بدونه يوماً . . أو عدة أيام . . نجد أن القدرة على اختزان الماء قليلة . . والقدرة على منع الماء عن البشر قليلة . . ومحدودة . . وإن كانت لها إمكانيات . . وهنا يتدخل ظلم الإنسان . . ولكن بقدر محدود جداً . . نظراً لأهمية الماء للحياة البشرية . . نأتي بعد ذلك إلى الطعام . . فنجد إن قدرة الإنسان على اختزانه ومنعه . . أكبر . . ولكن احتمال الإنسان لعدم تناول الطعام أكثر . . فإن الإنسان يستطيع أن يتحمل عدة أيام بدون طعام . . ولكنه في نفس الوقت يستطيع أن يحصل على ما يقيم أوده . . أو يبقي الحياة في جسده بسهولة نظراً لأن الكمية التي يحتاج لها الجسم البشري من الطعام ضئيلة نسبياً . . فهي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيمات أي كمية محدودة من الطعام وكلما زاد إقبال الإنسان على الطعام فسد جسده واعتلت صحته » .

وهذه هي مقومات الحياة الثلاثة . . شيء لا يستغني عنه الإنسان . . ولا يستطيع الحياة بدونه أبداً وهو الهواء . . نافذ فيه عدل الله . . ليحصل كل إنسان على حاجته بلا عناء . . وشيء يستطيع الإنسان أن يستغني عنه يوماً وهو الماء . . متوافر للناس . . وشيء ثالث وهو الطعام . . تحكم البشر فيه أكثر . . ولكن احتمال الإنسان للعيش بدونه أكبر . . وهنا ترى عدالة السماء في توزيع مقومات الحياة . . وتدخل الإنسان فيها . .

نأتي بعد ذلك إلى العلم . . ماذا استطاع العلم أن يقدم للإنسان من هذه المقومات ؟. الهواء المحيط بالأرض . . هل يستطيع العلم أن يخترع غلافاً جوياً كذلك الذي يحيط بالأرض . . أو

أن يوفر الهواء على كوكب القمر مثلاً . . مثـل توفيـر إرادة الله للهواء حول الأرض . . وبنفس العدالة . . الجواب : مستحيل طبعاً . . فإذا انتقلنا من الهواء إلى المـاء . . هل يستـطيع العلم أن يمـد ماء ، أو يوصل ماء لكوكـب من الكواكب ليس فيـه ماء ويجعـل الحياة ممكنـة فيـه ؟. هل يستـطيع العلم أن يخلق مـاء على كوكب من الكـواكب كـالماء المـوجود على الأرض يشـرب منه ألـوف الملايين من البشـر والحيوانات . . والطيور . . وكل شيء حي . . بحيث يكون متـوافراً . . ويسقي هؤلاء جميعـاً . . ويسقي أرضهم . . وينبت لهم الـزرع ليـأكلوا منه ؟. الجـواب : مستحيل . . فـالعلم عـاجـز عن أن يمـد الصحارى في الأرض بالماء اللازم لها . . لتزرع . . وهناك مساحات شـاسعة من الأرض صحـراء جرداء . . لا يستـطيع العلم أن يعـطيها الماء .

بل إننا نجد الصحراء تمتـد بجوار الأرض الخضـراء . . تلك فيها حياة . . والأخرى ميتة لا حياة فيها ولا ماء . . والعلماء يعترفون أن العلم عاجز عن أن يسقي البشر ماء رغم أن الله سبحانه وتعالى قد أتاح للعلماء معرفة تكوين عناصر الماء . . وطريقة تكوين السحب . . ولكن كل هذا هو من خلق الله . . والعلم لا يستطيع أن يقدم شيئاً في ذلك . . ولا يستطيع أن يخلق ظروف الحياة . . على كوكب لا حياة فيه . .

ننتقل إلى الطعام . . هل يستطيع العلم أن يجعل حبة تنمو على يـدك . . أو على شيء غير الأرض . . أو التـربـة الأرضيـة ؟. هـل يستطيع العلم أن يزرع زرعاً في الهواء فينمو ويزدهر ؟. لا يستطيع . . بل يجب أن ينمو الزرع في الأرض . . وأن يتغذى من التربة وبالماء . . ومن هنـا فإن مقـومات الحيـاة الثلاثـة لا يستطيـع العلم أن يقدم

للإنسان فيها شيئاً . . ولا يستطيع أن يعطيه فيها بديلاً . . الإنسان محتاج إلى الهواء . . والماء . . والأرض . . ليعيش . . والعلم عاجز عن أن يخلق له ماء أو هواء . . أو أرضاً جديدة . .

وكل ما يستطيع أن يقدمه العلم هو الرفاهية . . بمعنى أنني عندما أحس بالعطش يجب أن أذهب إلى النهر أو إلى النبع . . أو إلى مكان فيه ماء لأشرب . . العلم يجعل هذا الماء يصل إلى مكاني مثلجاً . . وبالنسبة للطعام . . المفروض عندما أجوع أن أذهب إلى المكان الذي يزرع فيه الطعام أو ينبت فيه الأكل . . العلم يوفر لي هذا الطعام في بيتي . . ويستطيع أن يكتشف طريقة لتحسين الانتاج وتطويره . . بحيث يكون الحجم أكبر . . والطعام أشهى . . ولكنه لا يستطيع أن يخلق طعاماً . . والعلم يوفر لي رفاهية في العمل الذي أقوم به . . فيخترع لي آلة بدلاً من الفأس التي استخدمها في الزراعة . . ويخترع لي آلة حاسبة أو عقلاً الكترونياً يقوم بالحسابات . . وييسر لي الانتقال السريع بالطائرة . . إلى غير ذلك من وسائل الإنتقال . . ولكنه لا يخلق لي شيئاً من مقومات الحياة . . وهذا واضح في قول الله سبحانه وتعالى في سورة الواقعة حينما يتحدث عن مقومات الحياة. . وكيف أنها من صنعه سبحانه وتعالى . . فيقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾[1] . . ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ المَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾[2] . . ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ، أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴾[3] . .

---

(١) الواقعة ، ٦٣ ـ ٦٤ .

(٢) الواقعة ، ٦٨ ـ ٦٩ .

(٣) الواقعة ، ٧١ ـ ٧٢ .

بقيت نقطة هامة جداً وهي نقطة الخلق . . وهذه محتاجة إلى حديث قادم حيث إن هناك من يجادل في خلق الله . . وهناك من يحاول أن ينكر الدين . . والله سبحانه وتعالى قد أنبأنا عن هؤلاء في القرآن . . وقال لنا الله أن هناك أناساً مضلين سيأتون . . ويحاولون أن يضلوكم عن دينكم . . ويتحدثوا عن خلق السموات والأرض . . وعن خلق الإنسان . . وهم سيحاولون إضلالكم عن الحق . . هؤلاء المضلون الذين أنبأ القرآن عنهم قد جاءوا . . وبدأوا في محاولة اضلال الناس . . ولكن مجيئهم كان تثبيتاً للدين . . وتصديقاً للقرآن . . فلو أن هؤلاء المضلين لم يجيئوا ولم يجادلوا في خلق السماوات والأرض . . لكان عدم مجيئهم ضد قضية الدين . . فالله سبحانه وتعالى قد قال لنا إن هناك مضلين . . وإنهم سيأتون . . ويجادلونكم في الخلق . . فكأن هؤلاء المضلين في محاولاتهم التشكيك في الدين . . إنما يثبتون أن هذا الدين حق . . ولكن كيف ؟ .

الإنسان وخلق الله

من الذي ميز الإنسان عن أي إنسان آخر مخلوق مثله . . رغم تشابه الخلق . . وجعل الفرد رغم تشابه الخلق مميزاً عن الدنيا كلها . . بحيث لا يتكرر شخص رغم تكرر الخلق . . هل تستطيع أن تميز بين عصفورة وعصفورة . . أو بين قرد وقرد أو بين أسد وأسد . . ولماذا التمييز . .

وإذا أردنا أن نستشهد بالقرآن الكريم في أمر هؤلاء الذين يضلون عن سبيل الله . . فإننا نجد الآية الكريمة : ﴿ **ما أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَوات وَالأَرْض . . وَلاَ خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِينَ عَضُداً** ﴾[1] . . ومعنى الآية الكريمة أن هناك أناساً سيأتون ليضلوكم عن سبيل الله . . ويتحدثوا عن خلق الإنسان . . وخلق السموات والأرض بنظريات من صنع هواهم . . لا تستند إلى الحقيقة ولا إلى الواقع . . وأنا أقول من الآن إن هؤلاء الناس لم يشهدوا معي . . أو لم اشهدهم لم يشهدوا معي . . ولا خلق الأرض . . ولا خلق الإنسان . . وما كنت متخذاً من هؤلاء المضلين عوناً لي في الخلق حتى يقولوا ما يعلمون .

---

(١) الكهف ، ٥١ .

لو لم يأت هؤلاء المضلون لقلنا إن القرآن قد أخبرنا أن هناك من يأتي ليضل عن سبيل الله . . وهؤلاء لم يأتوا . . ولو أن هؤلاء الناس لم يجادلوا في خلق السموات . . وخلق الأرض . . وخلق الانسان . . لقلنا إن القرآن أنبأنا أن هناك أناساً سيجادلون في الخلق . . ويضلون عن سبيل الله . . ولكن هؤلاء الناس جاءوا ليضلوا عن سبيل الله . . وتركوا مسألة خلق السموات والأرض . . وخلق الإنسان . . ولم يجادلوا فيها باعتبار أنها مسألة غيبية . . ومن هنا كان من الممكن جداً أن يأتي هؤلاء المضلون . . ويجادلوا في الله . . ولكن عندما تأتي نقطة خلق السموات والأرض . . وخلق الإنسان . . يقولون لن نجادل في هذا الأمر . . حيث إنه أمر غيبي خارج عن نطاق علمنا . . ولم نشهده . . ولا نستطيع أن نجادل فيه . . كان من الممكن أن يحدث هذا فعلاً . . ولكن كون هؤلاء المضلين أتوا . . وكونهم جادلوا في خلق السموات والأرض . . وفي خلق الإنسان . . وجادلوا دون برهان مادي يستطيعون تقديمه . . فهم لا يستطيعون مثلاً وضع الشمس والقمر داخل معمل لإجراء تجارب عليهما . . أو إدخال الروح البشرية تحت الميكرسكوب . . ولكنهم رغم علمهم المحدود . . جاءوا وجادلوا في هذه الأشياء . . ليس عن علم ، ولكن عن هوى . . حينئذ نقول إن هؤلاء المضلين قد قدموا الدليل على صحة القرآن وانه منزل من عند الله وقدموه وهنا المعجزة . . وهم يحاولون الإضلال عن سبيل الله . . أي إنهم أثبتوا أن الله حق . . وأن القرآن حق . . بينما هم يحسبون أنفسهم انهم يضلون . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي فيقول : إذا أردنا أن نناقش أحداً من الذين يضلون عن سبيل الله . . أو ينكرون وجوده سبحانه وتعالى . . فإنهم لا يقدمون الدليل . . أو الحجة على

ما يقولون . . ولا يناقشون جوهر الرسالة نفسها . . يأتي الواحد منهم ليقول إن هذا القرآن ليس منزلاً من عند الله مثلاً . . وهذه قضية جدلية . . لا يستطيع أن يثبتها . . فالله سبحانه وتعالى لم يخبره بهذا . . وهو لم يأت بعلمه الإنكاري عن أي طريق يقيني . . وإنما هو أتى به عن طريق هوى في نفسه . . يريد أن يحققه بالهروب من شريعة الله . . إلى شريعة أخرى . . تعطيه فوق ما له من حقوق . . وتسلب الآخرين ما لهم من حقوق .

ومن هنا فإننا إذا أردنا أن نناقش هذا الموضوع لا يجب أن نبدأ المناقشة بهذه النقطة . . ولكننا يجب أن نقول لكل من يجادل في الله محاولاً الإنكار : تعال وناقشنا في المنهج الذي وضعه الله . . تعال وناقشنا في المبادىء التي وضعها الله . . ولكننا نجد أنه يهرب من المناقشة . . ويحاول أن يتخلص منها . .

على أن الذين يجادلون في خلق السموات والأرض . . وخلق الإنسان . . إنما يأتون بأشياء عجيبة . . يحاولون إلباسها ثوب الحق . . وهي باطل . . ويحاولون أن يخدعوا الناس بأشياء كثيرة لا تمت إلى العلم بصلة . . نجد واحداً يأتي ويقول إن أصل الإنسان قرد . . ثم هناك حلقة مفقودة . . ونظرية الإرتقاء إلى آخر ما يقال في هذا الموضوع . . هذا شيء مبني على الظن . . فالرُجل الذي قال هذا الكلام لم يشهد قرداً تحول إلى إنسان . . ولا يستطيع أن يحول قرداً إلى إنسان . . إذن فهي نظرية غير يقينيةمبنية على افتراضات شكلية بعيدة عن العلم تماماً . .

ولكننا حين نبدأ المناقشة معه في المضمون . . نقول له : تعال . . هل شهدت قرداً يتحول إلى إنسان . . سيقول : لا . . هل

تستطيع أن تحول قرداً إلى إنسان ؟ . . سيقول : لا . . هل شهدت خلق الإنسان ؟. يقول : لا . . نقول : إذن علام تبني نظريتك . . على أي أساس ؟ . . يقول : على الملاحظة والتخمين . . نقول له : إذا كذلك . . فلنناقشك بالملاحظة والتخمين كما بنيت نظرياتك .

هل تستطيع أن تفسر لنا كيف ميّز الله الإنسان . . سيقول إنها نظرية الارتقاء . . نقول له نريد أن نتوقف قليلاً . . الإنسان كمخلوق من خلق الله مثله مثل باقي خلق الله . . ولكن الله سبحانه وتعالى ميزه بأشياء كثيرة . . أهمها العقل الذي يميز به الإنسان بين الحق والباطل . . والذي يكون في كثير من الأحيان هو الطريق إلى الضلالة . . إذا وضع العقل البشري كحكم مطلق . . وزاد عليه الغرور الإنساني . .

والآن فلنبدأ . . هل تستطيع أن تميز بين عصفور وعصفور آخر من نفس الجنس . . هل تستطيع أن تميز بين حصان وحصان آخر من نفس الجنس واللون . . وهل تستطيع أن تميز بين جاموسة وجاموسة . . أو قرد وقرد . . أو أسد وأسد . . أو أي حيوان وحيوان آخر . . الجواب طبعاً لا . . ولكنك تستطيع أن تميز بين إنسان وملايين البشر . . رغم أننا كلنا مخلوقون بنفس الشكل . . فكل منا له عينان . . وأذنان . . وأنف . . وفم . . ويدان وقدمان . . أي إن الشكل العام واحد . . ولكن كل إنسان له صورة معينة . . تميزه عن ملايين البشر . . فأنت حين ترى إنساناً بين الملايين التي تسكن الكرة الأرضية . . تقول هذا علي . . وهذا اسماعيل . . وهذه فاطمة وهذه زينب . . وهذا أبي . . وهذه أختي . . إلى آخر كل هذا . .

من الذي ميز الإنسان عن أي إنسان آخر مخلوق مثله . . وجعل

هذا التمييز تمييزاً خاصاً . . رغم تشابه الخلق . . ووضع هذا التمييز في كل إنسان ليستطيع أن يميز زوجته وابنه وأباه . . وأصدقاءه . . إلى آخر هذه العملية . . بل ويستطيع هو أن يكون مميزاً عن الناس أجمعين . . إنه هو الله سبحانه وتعالى ليستقيم ذلك مع الحياة التي رسمها له . . فهو مميز في الدنيا ليمكن حسابه في الآخرة . . ويكون شهيداً على نفسه . . وهو مميز في الدنيا ليكتب عمله له أو عليه ، وهو مميز في الدنيا لأنه سيحاسب في الآخرة . . فلو أن الإنسان كان غير مميز . . والخلق متشابه . . لكانت حياة الإنسان على الكرة الأرضية مستحيلة التنظيم . . لماذا . . لأن الإنسان لم يخلق للدنيا وحدها . . وإنما خلق للدنيا وللآخرة . . خلق وسيحاسب ويكون شهيداً على نفسه . . وأنا حين لا أستطيع أن أميز أبي وأمي وأولادي . . وزوجتي . . والناس حولي . . كيف يمكن أن أحاسب . . وكيف يمكن أن يأتي هؤلاء الناس الذين أسأت إليهم . . وأكلت حقوقهم في الآخرة ليكونوا شهداء ويأخذوا حقوقهم من حسناتي . . وكيف يمكن أن أكون شهيداً على نفسي . . وأنا لا أميزهم . . وكيف يمكن أن أحاسب على اتصالي بامرأة أخرى . . وانا لا أميز زوجتي . . إذن التمييز هنا ضروري وأساسي . . وقد وضعه الله باعجاز شديد . . رغم تشابه بلايين الخلق . . فإن لكل إنسان صورة مميزة لا تتكرر . . والدليل على ذلك صور وتماثيل الملوك . . الأقدمين التي تركوها في الأرض . . الفراعنة مثلاً ماتوا منذ قرون . . فهل تستطيع أن تأتي بانسان . . وتقول هذا رمسيس . . أو هذا هو نابليون . . الجواب مستحيل . . الإنسان قائم بذاته . . لا يتكرر رغم تكرر الخلق . . ومن هنا فإن الحساب يكون عدلاً . . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم إنه حين يتشفع المؤمنون للعاصين في الآخرة . . لاخراجهم من

النار . . يقول الله سبحانه وتعالى : إذهبوا واخرجوا من النـار من كان في قلبه حبة خردل من الإيمان . . فيذهبون إلى النار . . فيعرفـونهم بصورهم . . إن حياة الإنسان كحيوان بلا تمييز ممكنة إذا كان الهدف هو الدنيـا وحدهـا . ذلك أن هنـاك الوفـاً من المخلوقات تعيش بـلا تمييز .

ولكن ماذا عن الآخرة ؟ .

إذن تمييز الإنسان ضروري للحسابِ في الآخرة . . ولو إنه لم يكن هناك حساب وثـواب وعقاب . . لمـا ميز الإنسـان عن غيره من سائر المخلوقات . . ولكان الخلق قد تشابه كما هو في عالم الحيوان مثلاً . . هذا التمييـز الدقيق جـداً . . المعجز . . لا يمكن أن يـأتي بالتطور . . لأنه غاية في الدقة . . وغاية في الاعجاز . . خلق متشابه في كل شيء . . ومع ذلك كل إنسان فيه مميز عن الآخر . . تمييـزاً دقيقاً . . بحيث لا يتطابق إنسان في هذه الدنيا كلها مع إنسان آخر . . بل لا يتطابق في الخلق من أوله إلى يوم القيامة إنسان مع إنسـان في هذه الدنيا كلها مع إنسان آخر . . بل لا يتطابق في الخلق من أوله إلى يوم القيامة إنسان مع إنسان آخر ، أترى الإعجاز الذي يجب أن يسجد له كل ما في السموات والأرض، إن الإنسان لا يستطيـع . . ولا يقدر مهما بلغت عبقريته . . ومهما استعان بقوى الأرض جميعـاً أن يصنع أشياء متكررة متميزة لا يشبه أحدها الآخر . . مستحيل . . وفكر قليلاً في كل شيء يصنعه الإنسان . . بل تصنعـه أكبر عقـول البشر . . لا يمكن تمييز شيء متشابه بحيث يكون لكل فرد منه شخصية معينة . . ليكون مميزاً تمييزاً دقيقاً عن البلايين غيره . . أي ارتقـاء هذا الـذي يتجاوز كل قدرات الدنيا . . أي ارتقاء يمكن أن يضع هذا الاعجـاز المطلق في طفرة واحدة . . ولا مقدمات أي ارتقاء ذلـك الذي يقفـز

بـالإنسان ليجعله سيـد الأرض كلهـا . . ويجعـل كـل شيء مسخـراً لخدمته . .

ولكن بعض الناس يحاول أن يفرض أشياء خاطئة . . ثم يدعي كذباً أنهـا الحقيقة . . وفي خلق الإنســان . . معجزات لا يمكن أن تكون طفرة . . ولا ارتقاء . . ولا أي شيء . . مثلاً : العقل البشري . . ذلك الذي ميز به الله سبحانه وتعالى . . آدم وذريته . . والعقـل البشري إذا أردت أن تخلق عقلاً االكترونياً في قوته . . فإنك محتاج إلى أضعاف مساحة الكرة الأرضية . . لتقيم هذا العقل . . لأن العقل البشري الصغير الـذي تراه أمـامك في هـذه المساحـة المحدودة . . مكون من ألف مليون خلية عصبية . . وأريدك أن تضع معي خيـالك قليلاً . . ألف مليون خلية في هذه المساحة الصغيرة . . هذه الألف مليون خلية تعمل وتترجم وتهاجم وتدافع . . وهناك ثلاثة آلاف شعيرة تتذوق الطعام وتقول للإنسان هـذا حلو . . وهذا مـر . . وإذا اقترب جسـدك من شيء حـار . . صرخت ٣٠ ألف خليـة في مخــك . . احترس هذه نار . . إلى آخر الإعجاز في الخلق . .

كل هذا الإعجـاز لا يمكن أن يتم بالارتقـاء أبداً . . فـالطفـرة رهيبة بين الإنسان وغيره من المخلوقات لا يمكن إلا أن ينطبق عليها قـول الله سبحـانـه وتعـالى : . ﴿ **وَفَضَّلْنَـاهُمْ عَلَى كَثِيـرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَـا تَفْضِيلاً** ﴾[1] .

على أن بعض النـاس يجادل ويقـول كيف يكون هنـاك من هو موجود بلا حيز ولا مكان ولا زمان . . وأنا أقول أنظر إلى نفسك تعرف الجواب . .

---

(١) الإسراء ، ٧٠ .

ليس كمثله شيء

الأشياء يجب أن تنسب إلى الفاعل لتستطيع أن تدرك معناها . . فإذا قلت إن طفلاً ضربني بكل قوته . . وقلت إن أقوى رجل في العالم ضربني بكل قوته فالفعل واحد . . ولكن الفرق بين الفاعلين كبير . . وإذا كان هذا في قوانين البشر . . فما بالك بقدرة الله . .

يأتي هؤلاء المضلون محاولين استغفال عقول البشر . . وإثارة قضايا لا تتفق أو تتصادم مع ظاهر العقل البشري . . والله سبحانه وتعالى قد جعل لكل قضية تتصادم مع ظاهر العقل البشري حلاً يقربها إلى ذلك العقل . . حتى يستطيع الإنسان أن يواجه هؤلاء المضلين بالحجة البالغة التي هي من عطاء الله للنفس البشرية . . فالله سبحانه وتعالى كان لطيفاً في علمه . . لطيفاً بعباده . . فأعطاهم أمثلة تقرب إلى عقولهم ما يعجزون عن فهمه . . مثلاً يقول أحد الذين يضلون عن سبيل الله . . ويحاولون إيجاد تصادم وهمي بين كلام الله . . والعقل البشري . . كيف يكون هناك من هو موجود بلا حيز ولا مكان ولا زمان . . وأنا أقول إن الله سبحانه وتعالى بسط هذه المسألة وجعلها في أنفسنا لتقرب منا الصورة وتجعلها موجودة أمام العقل البشري بشكل قريب .

والسؤال الذي أطرحه هنا هو عن الإنسان . . عن نفسك . .
أنت تتساءل عما هو موجود بلا حيز ولا مكان ولا زمان . . وأنا أسألك عن روحك . . أين هي هذه الروح التي تجعل كل جسدك يعمل وينطق ويرى ويعيش . . هل هي في قلبك الذي ينبض بلا توقف ما دامت الروح فيك . . أم هي في عينيك تجعلهما يبصران فتريان الأشياء . . أم هي في أذنيك تجعلهما تسمعان . . أم هي في صدرك تجعله يتنفس . . أم هي في معدتك تجعلها تقوم بوظيفتها لتغذية جسمك . . أم في اليدين تجعلهما تتحركان وتفعلان ما تريد . . وتبطشان بمن تريد . . أم هي في قدميك تمشي بهما وتجري كلما شئت . . أم هي في أمعائك تجعلها توصل الطعام للدم . . أم هي في عقلك تجعله يفكر ويحسب . . ويدبر لك شؤون حياتك . . أم هي في دمك تجعله ينبض ويجري في عروقك ليعطيك الحياة . . أين مكانها بالضبط . . هل تستطيع أن تحدده ؟

قد يرد بعض الناس ليقولوا إنها في عقلك . . فهو الذي تتصرف به ويعطي الإشارات لكل شيء ليتحرك . . ولكن هذا مردود عليه بأن في الجسم مئات من الأشياء غير الإرادية التي تعمل دون إرادة الإنسان . . فالقلب ينبض بلا ارادة . . والدم يمشي في العروق بلا ارادة . . والتنفس يتم بلا إرادة . . والمعدة تعمل بلا إرادة . . إلى آخر ما تستطيع أن نعدده في الجسم البشري . . إذن فهناك الروح وهي مخلوق لله سبحانه وتعالى . . وقد وضعها الله في جسدك . . ورغم ذلك . . رغم ضيق المكان . . وتحديده فإنك لا تستطيع أن تقول . . أين هي الروح على وجه الدقة . . ولا تستطيع أن تحدد مكانها لتقول هنا في هذه النقطة توجد روحي . . فإذا أردنا أن نحدد الوزن نقول إن الجسد لا يفقد شيئاً عند الموت . . الوزن واحد تماماً . . ومع ذلك

فإن الروح تكون قد خرجت من الجسم . . ومن هنا فإنك لا تستطيع أن تحـدد للروح مكانـاً ولا وزناً . . وهي مخلوق من مخلوقـات الله سبحانه وتعالى . . فإذا أردت أن تحدد لها الزمان تحديداً علمياً مطلقاً يعتمد على أبحاث المعمل دون هوى من النفس . . فإنك لا تستطيع . . فأنت لا تعرف إن كانت روحك موجودة قبل ولادتك أم لا . . ولا تعرف أين تذهب بعد الموت . . ولا تعرف عمرها حتى يوم القيامة ولا بعـد يـوم القيـامـة . . ولـو أن الله لم يخبـرنـا بـأمـرهـا قبـل ميـلاد الإنسان وبعد وفاة الإنسان لعجـزنا عن أن نعـرف ذلك تمـاماً . . بـل إنك لا تعرف كم تلبث الروح في جسدك رغم كل ما يحاول العلم أن يحدده . . فالإنسان قد يموت فجأة من مرض أو صدمـة أو حادث لا يمكن أن يتنبأ به أحـد . . ولا تدري نفس متى وقت المـوت . . ولا يمكن أن تدري مهما بلغ التقدم من العلم . . ولا يمكن أن تدري بأي أرض تموت . . إذن الزمان هنا غير موجود . . والمكان غيـر موجـود . . والوزن أو الشيء المادي غير موجود . . هذا في خلق من خلق الله . . فما بالك بالله سبحانه وتعالى . . الخالق ؟

على أننا بعد ذلـك إذا انتقلنا إلى نقـطة ثانيـة . . وهي الموت والحياة . . نجد أن الله سبحـانه وتعـالى قد أعـطانا من المـوت شيئاً يقربنا من الخلق . . فإن الموت نقض للحياة . . ونقض الشيء يأتي على عكس بنـائه . . فـأنت حين تبني عمارة تبـدأ بـالـدور الأول أو الأساس . . وحين تهدمها تبدأ بـالدور الأخيـر . . وأنت حين تذهب إلى الأسكندرية مثلاً وتنزل في محطة سيدي جابر . . فإنك حين تريد العودة إلى القاهرة تبدأ من محطة سيدي جابر . . إذن المـوت نقض للحياة أول ما يخرج من الجسد هو الروح . . وبذلك تكون آخر شيء

قد دخل فيه . . ثم يتصلب الجسم إلى حمأ مسنون . . ثم يتحلل إلى طين لازب . . ثم إلى تراب . . وهذه الأطوار هي العكس المقابل لأطوار الخلق . . كما ذكرها القرآن الكريم .

على أن الله سبحانه وتعالى حينما يريد أن يعطينا . . يعطينا قضية عامة . . فإذا رأيت فيها شيئاً يقف فيه عقلك . . لأنه يخالف ما تعتاد وتألف فضعها تحت عنوان سبحان الله . . وليس كمثله شيء .

ونفسر هذه العبارة قليلاً . . إذا قلت إن فلاناً قد ضرب فلاناً بكل قوته . هل تعني نفس الشيء ؟. الجواب أبداً . . لا يكون للشيء معنى إلا إذا نسب لفاعله . . ووضعت فيه قدرات هذا الفاعل . . بمعنى أنني إذا قلت إن طفلاً صغيراً عمره أشهر ضربني بكل قوته . . وقلت إن بطل العالم في الملاكمة ضربني بكل قوته . . فهناك فرق كبير بين المعنيين . . الأول ضربه لا يؤثر فيّ . . ولا أحس به . . والثاني ضربه قد يقتلني . . مع أن الاثنين قد استخدما كل قوتهما التي وهبها الله لهما في عملية الضرب . . ولكن الفعل هنا يتناسب مع القوة . . فالطفل الصغير لا أكاد أحس بضربه . . وبطل العالم يستطيع أن يحطم ضلوعي بسهولة . . هذا في قدرة البشر المحدودة . . هذا في قوة المخلوقات . . فما بالك بالله سبحانه وتعالى . . الخالق ؟

وإذا أخذنا هذا المثل . . ووضعنا الله سبحانه وتعالى تحت عبارة سبحان الله . . وليس كمثله شيء . . استطعنا أن نقرب كثيراً من المعاني التي قد يستغلها البعض لإضلال البشر . . لله سبحانه وتعالى قوة . . ولي قوة . . ولكن هل قوتي مثل قوة الله سبحانه وتعالى ؟. لله سبحانه وتعالى علم . . ولي علم . . ولكن هل علمي مثل علم الله سبحانه وتعالى ؟. والله حي . . وأنت موصوف بالحياة . . فلا تقول

إن حياتك مثل حياة الله سبحانه وتعالى . . وجود الله سبحانه وتعالى ليس كوجودك . . وعلمه ليس كعلمك . . وقدرته ليست كقدرتك . . ومن هنا يخرج وجه المقارنة . . حيث إنه لا مقارنة . . فالله بقدراته وقوته يأتي تحت وصف سبحان الله . . وليس كمثله شيء . . ومن هنا فأنني لا يجب أن أنسب إلى نفسي بالمدلول البشري ما يقوله الله سبحانه وتعالى عن ذاته . . فعندما أتصور قوة الله لا أقارنها بقوتي . . ولكني أقول سبحان الله . . وليس كمثله شيء . . وعندما أتصور انتقام الله لا أقارنه بانتقامي . . وإنما أضعه تحت عبارة سبحان الله . . وليس كمثله شيء . .

ومن هنا نجد أننا إذا تذكرنا « سبحان الله . . وليس كمثله شيء » . . يمكن أن نصل إلى مدلول أشياء كثيرة . . فأنت مثلاً لا تستطيع أن تتصور إلا ما تراه . . وعندما يخبرك الله سبحانه وتعالى عن أشياء لا تراها تضعها تحت عنوان سبحان الله وليس كمثله شيء . . لأنه شتان بين رؤيتك ورؤية الله سبحانه وتعالى . . مثلاً سبحان الله الذي أسرى بعبده . . من الذي أسرى ؟. الله سبحانه وتعالى . . أسرى بنبيه إلى المسجد الأقصى . . لا تأتي لي في هذه الحالة بقوانين الزمان . . وقوانين المكان وتتصورها . . ثم تحاول أن تطبقها على فعل من أفعال الله . . لماذا ؟. . لأن الله ليس كمثله شيء . . ومن هنا فإن هذه القوانين التي تحكمك لا تحكمه . . والزمان والمكان اللذان تخضع لهما لا وجود لكليهما عند الله سبحانه وتعالى . . لأنه ليس كمثله شيء . . الذي أسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم هنا هو الله سبحانه وتعالى . . ولذلك حين قال بعض الصحابة أيستطيع محمد أن يذهب إلى بيت المقدس . . ويصعد إلى السماء . . ويعود في ليلة واحدة . . نقول إن محمداً عليه الصلاة والسلام لم

يدع ذلك . . وإنما أسري بـه . . والذي أسـرى به هـو الله سبحانـه وتعـالى . . والله ليس كمثله شيء . . ومن هنا فـإن قـوانين الـزمـان والمكان . . وقوانين الدنيا كلهـا . . والقوة والقـدرة إلى آخر كـل ما يتصوره البشر لا ينطبق على الإسراء . . لأن الله هو الفاعل . . والله ليس كمثله شيء . . وإذا كان كل شيء يأتي بالتشابه . . فـإن الذي يأتي من الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء . . ولذلك عندما تقول سبحان الله وليس كمثله شيء . . فإننا نعلو بهـ سبحانه علواً كبيراً عن كل شيء يأتي بالتشابه . . إذن كل ما نطق به الله سبحانه وتعالى خذه على أنـه له . . أمـا عن كيفيته فـلا أحد يستـطيع أن يصـل إليـه . . لماذا ؟ . . لأنه ليس كمثله شيء . .

والغيب والملائكة

« عندما يحدثنا الله سبحانه وتعالى عن معجزة من المعجزات التي يؤيد بها أنبياءه أو . . عن عالم الجن أو الملائكة الذي لا نراه . . يجب أن نعرف أنها حقائق . . لماذا ؟ لأن ما هو فوق قدرة العقل موجود . . وما هو فوق قدرة السمع موجود . . وما هو فوق قدرة البصر موجود . . » .

الذي أسرى هو الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا فإن قوانين الزمان والمكان . . وقوانين الدنيا كلها . . والقوة والقدرة لا تنطبق على الإسراء . . لأن الله هو الفاعل . . وإذا كان كل شيء يأتي بالتشابه فإن الذي يأتي من الله سبحانه وتعالى ليس كمثله . . بل هو يعلو علواً كبيراً عن كل شيء يأتي بالتشابه .

ومن هنا عندما يحدثنا الله سبحانه وتعالى عن معجزة من المعجزات التي يؤيد بها أنبياءه . . أو عن عالم الملائكة والجن الذي لا نراه . . فنحن نعرف أن هذه حقائق لأن الله سبحانه وتعالى قادر وقدرته لا تقارن بالدنيا كلها . . وعلمه لا يصل إلى ذرة من ذراته . . علم البشر جميعاً . . فهو يخلق ما نرى . . يخلق ما لا نرى . . ويخلق ما لا نراه الآن . . وقد نراه في المستقبل . .

ولكن الله سبحانه وتعالى كما قلت لطيف بعباده . . ومن هنا فإنه يضع في الكون آيات تقرب إلى العقل البشري . . ذلك الذي يعجز عنه هذا العقل وتجعله قريباً من تصوره . . وهو بذلك يريد أن يدخل الاطمئنان إلى قلوبنا . . وأن يعطينا الإيمان واليقين بحيث نستطيع أن نجابه المضلين . . وأن نرد عليهم . . والإنسان المؤمن دائماً في قلبه سكينة . . وفي قلبه أمل . . ذلك أنه يؤمن بقدرة الله التي هي بلا حدود . . ويؤمن بأن الله الذي كتب على نفسه نصر المؤمنين . . وكتب على نفسه نجاة المؤمنين . . وكتب على نفسه أن يدافع عن الذين آمنوا . . تلك القدرة الهائلة . . قادرة على حمايته . . وعلى دفع الضر عنه . . ولو كانت أسباب الدنيا كلها ضده . .

ولكن كما يجادل بعض الناس في الروح يأتي واحد منهم ويقول ما هذا الكلام عن عالم الجن والملائكة . . أنا لا أصدق إلا ما أراه . . ويجادل ويجادل إلى آخر هذا الكلام . . فإذا قلت له هل شهدت الخلق . . هل شهدت خلق الجن والملائكة . . يرد عليك وأنت أيضاً لم تشهده . . وهنا نرد عليه بأن الله سبحانه وتعالى قد وضع لنا في هذا الكون الدليل على أن ما فوق قدرة العقل . . وما فوق قدرة البصر . . وما فوق قدرة السمع . . موجود في هذا العالم . . منذ خلق الأرض ومن عليها . . وكل هذا يخرج من علم القادر وهو الله سبحانه وتعالى إلى علم غير القادر وهو الإنسان . . ويدل على أن ما هو فوق القدرة البشرية . . موجود ولكننا لا نعقله . . ولا نسمعه . . ولا نراه . ولنناقش هذه المسائل الثلاث .

ما هو فوق قدرة العقل موجود منذ الأزل . . وإن كان قد أصبح في قدرة العقل خلال السنوات الأخيرة مثلاً . . ان يطير الإنسان في

الهواء بطائر كانت فوق قدرة العقل في الماضي . . بحيث إنك إذا قلت منذ مائة سنة مثلاً . . إنك ركبت طائرة وطرت بها في الهواء لأتهمك الناس بالجنون أو بالكفر . . ولقتلوك . . ولو قلت إنك تحدثت في آخر الدنيا فسمعك ملايين البشر في وقت واحد . . لو قلت هذا منذ مائة سنة فقط لما صدقك أحد . . ذلك أن هذا كان فوق قدرة العقل البشري . . ولكنك الآن تذهب إلى أي مطار فتركب الطائرة وتطير في الهواء . . وتتحدث في الاذاعة فتسمعك الدنيا من أقصاها إلى أقصاها . . كيف حدث ذلك . . هل اخترع الإنسان غلافاً جوياً جديداً للأرض يمكنه من الطيران . . هل دار حول الدنيا ليضع موجات الأثير . . لا . . لا هذا ، ولا ذاك طبعاً . . إنما الغلاف الجوي كما هو منذ خلق الأرض ومن عليها . . وموجات الأثير كما خلقها الله سبحانه وتعالى منذ بداية الكون . . ولكن الذي حدث أن الله أدخل الانتفاع بهذه الأشياء مما هو فوق قدرة العقل البشري إلى علم البشر . . أي إن هذه الأشياء خرجت من علم القادر إلى علم غير القادر بكلمة كن . . فاستطاع الإنسان أن يطير في الفضاء . . وأن يتحدث فتسمعه الدنيا كلها إلى آخر ما حققه وسيحققه العلم بقدرة الله . . وهذا دليل قاطع على أن ما فوق قدرة العقل البشري موجود . . وأن العقل البشري ليس هو الحد الأعلى للعلم والمعرفة على هذه الأرض . . وأنه كلما تقدم الزمن أعطى الله سبحانه وتعالى علماً كان فوق قدرة البشر أعطاه للقدرات البشرية حتى يستطيع الإنسان أن يصل إليه . . وحتى يؤمن الإنسان أن ما فوق قدرة العقل موجود . . وحقيقة واقعة . . وإن يكن يجهلها . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ويقول هذا بالنسبة للعقل . أما بالنسبة لما هو فوق قدرة الاذن فذلك شيء نعرفه

كـل يوم . . إذا جلست أنت في حجـرة مغلقة ليس فيهـا أي صـوت وسألتك أنا هل يوجد صوت في هذه الحجرة . . تقول لي أنا لا أسمع شيئاً . . وكوني لا أسمع شيئاً . . فإنه لا يوجد صوت في هذه الحجرة . . فإذا أدرت الراديو سمعت مئات الأصوات من جميع أنحاء الدنيـا . . من أين جاءت هذه الأصـوات ؟. هذه الأصـوات تسبح في جـو الحجرة . . ولكنك لا تستطيع أن تسمعها بالأذن المجردة لأنها فـوق قدرة الأذن . . فإذا أتيت بآلة استطاعت أن تجعل هـذه الأصوات في قـدرة الأذن . . كان في إمكـانك أن تسمعهـا وتميزهـا . . إذن فهذه الأصوات موجودة . . ولكنك لا تستطيع أن تسمعها إلا إذا أتيت بآلة تجعل أذنك قادرة على أن تستمع إليها . . وربما في المستقبل تكون هناك اختراعات أخرى بما هو في علم الله . . . . ولم يصل إلى العلم البشري بعد . . تستطيع أن تجعلك تسمع أصواتاً لا نسمعها الآن . . ولا ندري عنها شيئاً . . بل إنني أريد أن أزيد على هذه التجربة لمحة صغيـرة . . إذا أتيت بالـراديو التـرانـزسـتـور ووضعت سمـاعـة الأذن الصغيرة في أذنك . . وجلسنا نحن الإثنان معاً بجوار بعضنـا البعض . . وسألتني هل أسمع شيئاً سأقول لا . . هل يوجد صوت هنا سأقول لا . . بينما أنت جالس إلى جواري والسماعة في أذنك تسمع الدنيا كلها . . وكما تشاء وأنا بجانبك لا أسمع شيئاً . . مـا معنى هذا . . معناه أن الجهاز الذي تستخدمـه قد جعـل الأصوات التي تسبـح في الحجرة . . التقطها وجعلها في مقدرة أذنك . . بينما أنا جـالس إلى جـوارك . . وفي نفس المكان . . ولكن هـذه الأصوات فـوق قـدرة سمعي . . هـل معنى ذلك أن الأصـوات التي تسمعها أنت بسمـاعة الراديو غير موجودة . . لأنني لا أسمعها . . مستحيل . . ولكن معناه أن هذه الأصوات التي تسمعها أنت وحدك . . والتي هي فـوق قدرة

أذني ، موجودة . . ولكني غير قادر على سماعها . . لأنني لا أستخدم الـراديو الـذي تستخدمـه أنت ليجعلك قادراً على السمـع . . نكون بذلك قد وصلنا إلى أن ما هو فوق قدرة العقل موجود . . وما هو فوق قدرة السمع موجود . . ثم نأتي إلى ما هو فوق قدرة البصر . .

أنت تقول أنا لا أرى العوالم الأخرى التي يتحدث عنها الله . . ومن هنا فهي غير موجودة . . وأنا آتي لك بنقـطة ماء من التـرعة . . وأقول لك هل ترى في هذا الماء شيئاً . . ستقول لا . . وعندما أضع الماء تحت الميكروسكوب . . تظهر فيه مئات الجراثيم الدقيقة الحية التي تتحرك بشكل عجيب . . أقول لك أنظر في الميكروسكوب . . سترى هذه الجراثيم . . بل إن الإنسان المريض حينما تأخذ نقطة من دمه فإنك لا ترى فيها شيئاً . . فإذا وضعتها تحت الميكروسكوب . . أو وضعت عليها سائلاً معيناً تكتشف جـراثيم وأشياء عجيبـة . . أين كانت هذه الأشياء . . كانت فوق قدرة بصرك . . فعندما استعنت بآلة مكبرة . . جعلتها في قدرة البصر ليصبح من الممكن رؤيتها . . ولكن هل عدم رؤيتك لهذه الجراثيم معناه أنها غير موجودة . . أو أن هـذه الجـراثيم لـم تكن موجـودة قبل اختـراع الميكـروسكـوب . . كـانت موجودة قـطعاً . . ولكنهـا كانت فـوق قدرة البصـر . . وجاء اختـراع الميكروسكوب ليدخلها من فوق قدرة البصر إلى القدرة البشـرية . . ولكنها كانت موجودة رغم انك لا تراها . .

وإذا جلست في حجرة بها تليفزيون . . هذه الحجرة ليس فيها صورة . . فإذا فتحت التليفزيون أصبحت الحجرة فيها صورة . . بل ورأيت وأنت جالس أمامك إنساناً يمشي فوق القمر . . هل في قدرة البصـر أن يرى إنسـانـاً يمشي فـوق القمـر . . الجـواب نعم . . إذا

استخدمت امكانيات الله في الكون . . ولقد استخدم العلم امكانيات الله في الكون في نقل الصورة من مكان إلى آخر . . فالعلم لم يخترع طبقات الجو التي تنقل الصورة . . ولا يستطيع أن يخترعها . . بل اكتشفها بكلمة كن . . والله هو القادر الذي كان في علمه كل هذا . . وأخرجه إلى علم غير القادر . . وهو الإنسان . . لماذا؟ ليعلم الإنسان علم اليقين . . إن ما هو فوق قدرة عقله موجود . . وإن ما هو فوق قدرة سمعه موجود . . وان ما هو فوق قدرة بصره موجود . . حتى إذا حدثه الله سبحانه وتعالى عن قضية غيبية هي فوق قدرة العقل . . أو السمع . . أو البصر . . عرف يقيناً أنها موجودة . . وإن ما يقوله الله سبحانه وتعالى حق . .

إذن ما هو فوق قدرة الإنسان موجود فعلاً . . وموجود بفرق شاسع جداً . . هو الفرق بين قدرة المخلوق والخالق . . والله سبحانه وتعالى أراد ألا تكون هذه القضية الإيمانية . . وهي قضية الغيب . . الا تكون مادة للمضلين ليضلوا بها الناس . . ويبعدوهم عن طريق الله . . فجعل العقل البشري نفسه ينتقل بقدرة الله مما هو مستحيل عقلياً ومما هو ممكن . . ليثبت أن ما فوق قدرة العقل موجود . . وجعل العقل يستطيع بقدرة الله أن ينتقل مما هو فوق قدراتها العادية . . وجعل الغير يستطيع أن يرى ما لم يكن يحلم بأنها ستراه . . وكان الله سبحانه وتعالى يستطيع أن يعطي كل هذا العلم للعقل البشري في اللحظة الأولى التي خلقه فيها . . ولكنه لم يرد ذلك حتى يكون العطاء للإنسان عطاء فيه إثبات لقدرة الله . . وفيه إثبات لوجود الغيب . . وفيه إثبات لما هو فوق القدرات البشرية . . وأن يكون العطاء متجدداً لكل جيل . . وعطاء الله لا ينتهي ولا ينضب أبداً . .

ولكن هناك بعض القضايا التي يثيرها المضلون .. مثل قضية تغيير القبلة مثلاً .. يقولون إن الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ وللهِ المَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فأينما تولوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾[1] .. ومن هنا فإنني حين أتجه إلى أي مكان فهناك الله سبحانه وتعالى .. ثم إن الاتجاه إلى المسجد الأقصى هو الاتجاه إلى المسجد الحرام ليس فيهما زيادة تكليف .. أو زيادة في الطاعة .. الله سبحانه وتعالى قد يفرض شيئاً لزيادة طاعته .. أو زيادة في الإيمان به .. ولكن الإتجاه إلى المشرق مثل الإتجاه إلى المغرب لا يكلف المؤمن شيئاً أن يتجه إلى هنا أو هناك .. فلماذا تغيرت القبلة .

(١) البقرة ، ١١٥ .

ولا خطر على قلب بشر

إن الله يدافع عن الذين آمنوا . . ويدافع عنهم بقدراته هو . . وليس بقدراتهم هم . . ومن هنا فإن الإنسان المؤمن قلبه مطمئن مهما حدث . . نفسه لا تضيع مهما أظلمت الدنيا أمامه . . لأن الله يؤيده بنصره يؤيده بقدرة الله . . وليس بقدرات البشر . .

ولقد اكتشفنا في الغلاف الجوي خصائص مكنت الإنسان من الطيران في الفضاء . . ومن الوصول إلى القمر . . ولا يستطيع عقل أن يدعي أن ذلك من صنع البشر . . لأن الذي خلق الغلاف الجوي هو الله سبحانه وتعالى . . والذي خلق المادة التي تصنع منها الطائرات أو الصواريخ هو الله سبحانه وتعالى . . والذي أوجد النظرية التي يطير بها الإنسان أو يخرج بها من الغلاف الجوي للأرض هو الله سبحانه وتعالى . . ولا يستطيع الإنسان أن يصنع شيئاً من ذلك . . بل هو اكتشفه . . ومعنى اكتشاف الإنسان له . . ان هذه الخاصيات كانت موجودة منذ خلق الله الأرض ومن عليها . . المعادن التي تصنع منها الطائرات . . كانت موجودة في الأرض منذ الخلق . . ولكنها كانت فوق قدرة العقل البشري . . فلم يستطع أن يستخدمها . . ثم أدخلها الله في قدرة العقل البشري ليؤكد لنا . . ويقرب لنا . . إن ما

هو فوق قدرة العقل موجود . . وإن كنا لا ندري بوجوده . . وانه من الممكن أن يدخل في نطاق العقل . . فيصبح أمراً ممكناً للبشر . . وهذا حتى لا نجادل عندما يحدثنا الله عن أنباء في الغيب هي فوق قدرة عقولنا . . ولا يأتي إنسان مضل ويقول : أنا لا أصدق ما هو فوق قدرة عقلي . . لأنه غير موجود . . ويدعى أنه رجل علمي في تفكيره . . متقدم في أفكاره . . نقول له إن العلم الذي تستشهد له . . والتقدم الذي تتمسح فيه . . كلاهما يكذبك . . لأن العلم هو مثبت مؤكد . . إن ما هو فوق قدرة العقل موجود بما يكتشفه من قدرات في الكون وضعها الله منذ الأزل . . ولم تدخل في نطاق العقل البشري إلا منذ عشرات السنين . . وإن التقدم يكذبك . . لأن التقدم كل يوم يسجل لنا كشفاً كان فوق قدرة العقل . . ولكنه موجود . .

ويمضي فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي . . في أن الأذن تستطيع أن تسمع ما يدور في أقصى الدنيا . . بل ما يدور فوق القمر من حديث . . إذا استخدمت لها الآلات . . أو الوسائل التي ترفع قدراتها إلى ذلك . . فجهاز الراديو الصغير يستطيع أن يجعلك تسمع كل ما يدور في العالم . . والعين تستطيع أن ترى بصراً ممدوداً إلى ما لا نهاية . . وقد استطاعت باستخدام نظريات وقوانين الله في الكون أن ترى ما يحدث فوق سطح القمر . . وأنت جالس في حجرة في منزلك . .

فإذا كانت الأذن تستطيع أن تسمع ما يدور في الدنيا كلها . . وقد تلاشت المسافة بالنسبة لها تماماً . . وإذا كانت العين تستطيع أن ترى ما يحدث فوق القمر وأنت جالس في منزلك . . أو مكان عملك . . إذا كان هذا كله ممكناً بقدرات البشر . . وبالعلم الذي أعطاه الله

لبني آدم وكرمه به .. ورفعه على كل مخلوقاته . . إذا كان هذا العلم اليسير القليل الذي أعطاه الله لبني آدم . . استطاع أن يجعله يسمع ما في الدنيا كلها . . ويرى ما يحدث فوق القمر . . فكيف يكون الحال في الآخرة عندما تكون القدرة لله . . وليست للبشر . . وعندما يكون العلم لله وليس للبشر . . وعندما يعطينا الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء من القدرات . . بدلاً من أن تعطيها لنا يد بشرية محدودة القدرة والقوة . . ماذا سترى العين . . وماذا ستسمع الأذن .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي قائلاً إن هذه نقطة لا بد أن نتأمل فيها . . قدرات البشر أرتنا ما فوق سطح القمر . . ونحن جالسون في بيوتنا . . والذي رأى هو العين . . لأن كل هذه الآلات والإختراعات البشرية لا تستطيع أن تجعل رجلاً أعمى يرى . . فالذي رأى هي العين التي خلقها الله . . وليست الآلة التي اخترعها الإنسان . . الآلة أو الجهاز التليفزيون كان وسيلة فقط . . ولكن العين التي خلقها الله غير التي رأت وشاهدت . . ولو أن الله ذهب بنور هذه العين ما استطاعت أن ترى شيئاً رغم كل إضافات البشر التي منحها الله لهم بالعلم .

أقول إذا كانت العين استطاعت أن ترى بقدرات البشر المحدودة ما يحدث على القمر . . وربما ترى غداً ما يحدث على كوكب الزهرة . . إذا كان ذلك قد تم في الدنيا . . وإذا كان الفعل في الآخرة هو من الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء . . أفلا تستطيع أن تتصور معنى أن الجنة فيها ما لا عين رأت . . عيوننا رأت في الدنيا أشياء كثيرة . . واستطاعت أن ترى بقدرة البشر أشياء تحدث على بعد مئات الألوف من الأميال . . وربما ترى أشياء تحدث على

بعد ملايين الأميال . . هذا بقدرة البشر . . فإذا جاءت الآخرة كان ذلك بقدرة الله سبحانه وتعالى . . فترى العين ما لا عين رأت . . والفرق بين الرؤية هنا . . والرؤية في الآخرة . . أنها في الدنيا بقدرة البشر وفي الآخرة بقدرة الله . . وشتان بين القدرتين . . لا مقارنة . . وبالتالي فلا مقارنة بين ما يراه الإنسان في الدنيا . . وما سيراه في الآخرة . . الفرق رهيب هائل . . هو الفرق بين قدرة الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء . . وبين قدرة البشر . . وأكرر . . لا مقارنة .

وما ينطبق على العين . . ينطبق على الأذن . . حينما يأتي الحديث الشريف ان الإنسان سيسمع في الجنة ما لا أذن سمعت . . أقول إن ذلك صحيح مائة في المائة . . وإنه سيكون هناك فرق رهيب وهائل بين ما تسمعه الأذن في الدنيا . . وما ستستطيع أن تسمعه في الآخرة . . الأذن في الدنيا بقدرة الله سبحانه وتعالى قد استطاعت أن تسمع انساناً يتكلم في آخر العالم . . بل إنساناً يتكلم فوق القمر باستخدام آلة صغيرة هي الراديو . . وباكتشاف قوانين الله في الكون وهي الأثير الذي يحمل الصوت للدنيا كلها . . وكما قلت عن العين أقول عن الأذن . . الأذن أيضاً هي التي تسمع، كل الآلات المخترعة وسيلة . . ولكنها وسيلة لا تسمع الصم . . إنما الذي يسمع هو الأذن التي خلقها الله سبحانه وتعالى . . فعندما نقول إن الآخرة سيكون فيها ما لا أذن سمعت . . نسجد لجلال هذه العبارة . . ذلك أن الفارق سيكون رهيباً وهائلاً . . وهو الفرق بين قدرة الله خالق كل شيء . . وبين قدرة البشر المخلوق . . وما دام أنه لا مقارنة بين قدرة الخالق والمخلوق . . فلا مقارنة بين ما تسمعه الأذن في الدنيا . . وما ستسمعه في الآخرة . .

فإذا حدثنا الله سبحانه وتعالى عن الغيب . . وإذا حدثنا عن عوالم الملائكة والجن . . وإذا رجعنا إلى الحديث الشريف أنه في الجنة سيكون هناك ما لا عين رأت . . ولا أذن سمعت . . ولا خطر على قلب بشر . . نعلم أن هذا يقين ، لماذا ؟ لأننا حين نأخذ ما في أيدينا . . ثم نقارن نجد أن الفرق سيكون هائلاً . . وإذا كان العلم قد تقدم ليكتشف قوانين الله في الأرض واستطاع أن يقدم للعين قوة الرؤية على بعد ملايين الأميال . . وأن يقدم للأذن قدرة السمع على بعد ملايين الأميال . . والعلم سيتقدم في الأجيال القادمة ليقدم لنا أكثر من ذلك . . . وأكثر . . وبعد مائة أو مائتي عام . . وربما استطاعت العين أن ترى ما لا تراه الآن . . كما استطعنا نحن مثلاً أن نرى الميكروبات التي لم يكن يراها أجدادنا . . وأن نرى الإنسان فوق القمر الذي لم يره الجيل الذي قبلنا . . وستكون الأذن قد تقدمت لتسمع ما لا تسمعه الآن . . تماماً كما تقدمنا نحن لنسمع ملايين الأصوات التي لم نكن نسمعها من قبل . ولكن المهم هو أن الفرق سيبقى كما هو . . وهو الفرق بين قدرة البشر . . وقدرة الله سبحانه وتعالى . . وهذا الفرق هائل ولا وجه فيه للمقارنة . . ومن هنا فإن عظمة ما قيل من أن الإنسان سيرى في الآخرة ما لم تره عين . . وما لم تسمعه أذن . . وما لم يخطر على قلب بشر . . يزداد عمقاً وإعجازاً كلما تقدم العلم . . لأن الفرق باقٍ بين قدرة الله وقدرة البشر . . وذلك تصديقاً للآية الكريمة ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ . . وفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ** ﴾[1] . . ولذلك فكلما تقدم العلم

---

(١) فصلت ، ٥٣ .

. . ازددنا خشوعاً وخضوعاً لله سبحانه وتعالى الـذي يرينـا آياتـه في الآفاق . . وفي أنفسنا .

ثم يقـول لنا مـا أعـطيتـه لكم من العلم هـو ذرة . . ولكن في الآخرة سأمتعكم على قدر قدراتي أنا . . سأجعلكم تسمعون لا بقدرة أعطيتها لبشر . . ولكن بقدرتي وسأجعلكم ترون بقـدرتي وسأمتعكم بقدراتي ولنا أن نتصـور الفرق الهـائل الـذي سيتم على أساسـه متاع الآخرة بالنسبة لمتاع الدنيا . . وكلما ازدادت الرفـاهية . . وازداد ما تقدمه المدنية من حياة مريحة ليس فيها تعب ولا نصب . . فإن ذلك يزيد من قدراتنا على التصور فيما سيمتعنا الله به في الآخرة . . إن كنا من أهل الجنة . . جعلنا الله وإياكم من أهلها .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمـد متولي الشعـراوي فيقول : ومن هنا فإن الإنسان المؤمن حين يقدم صدقة . . فهو ليس بإنسان يضيع ماله . . وهو ليس بإنسان غبي . . لأن هذا المـال الذي أخـرجه في سبيل الله . . كان يستطيع أن يتمتع به وهو في الدنيا متاعاً محدوداً . . وبنفس قيمة المال . . ولكنه لذكائه اختار أن يتمتع به متاعاً بلا حدود على قدر قدرات الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء . . واختار أن يتمتع بعشرة أمثال قيمته . . أو بأكثر . . لأن الحسنة بعشر أمثالها . . ومن هنا فإنه عندما يخرج هذا المال يكون قد حقق بـه فائـدة لا يمكن أن يحققها له هذا المال في الدنيا . . بل يكون قد عقد صفقة رابحة لا يمكن أن يعقدها في الدنيـا ولو كـان مكسبه من هـذا المال أضعـافاً مضـاعفة . . ذلـك أن كل شيء يتم في الـدنيـا على حسب قدرات البشر . . وكل شيء في الآخرة بقدرة الله . . والله ليس كمثله شيء .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ،ان هذه الصورة ربما تقرب لنا بعض ما ينتظر الإنسان المؤمن والمسلم . . ذلك فضلاً عن أن الله سبحانه وتعالى يدافع عن الذين آمنوا وهو يدافع عنهم بقدراته . . وليس بقدرات البشر . . ومن هنا فإن دفاع الله عن الإنسان المؤمن . . لا يمكن أن تقف أمامه قوة في الدنيا . . ولا يخشى أي قوة مهما بلغت . . لأن الذي يدافع هو الله سبحانه وتعالى . . ومن هنا أيضاً فإن الإنسان المؤمن قلبه مطمئن مهما حدث له . . ومهما ضاعت الأسباب من يده . . لماذا ؟ . . لأنه يحس أن الله معه . . والله معه بقدراته فوق الأسباب والمسببات . . وليس كمثله شيء . . ولا يمكن لإنسان مؤمن مسلم أن تضيع نفسه حسرات أمام عقبات الدنيا مهما حدثت . . وأمام أمور الدنيا مهما أظلمت . . وذلك أن الذي يؤيده بنصره . . والذي هو وليه . . والذي يفتح له الأبواب المغلقة . . ويضيء له الطريق المظلم هو الله سبحانه وتعالى . . وفي كل أمر من الأمور هو يرد الأمر إلى الله الذي ليس كمثله شيء . . فالله سبحانه وتعالى يفتح له من الأبواب ما لم يخطر على قلبه أو عقله . . ويسبب له من الأسباب ما لم يكن يعتقد أنه سيتم . .

على أن هذا كان استطراداً لا بد منه قبل أن نبدأ في الحديث عن لماذا تغيرت القبلة . . مع أن الله سبحانه وتعالى قال ﴿ **وَلِلَّهِ المشرقُ والمغرِبُ . . فَأَيْنَمَا تَولوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ** ﴾ . .

لماذا تغيرت القبلة

ووصفهم الله سبحانه وتعالى بالسفهاء قبل أن يتكلموا . . وأنبأنا عنهم قبل أن يجادلوا . . وكان من الممكن أن يمتنعوا عن الكلام . . ويتوقفوا عن الجدل ولكن الله أتى على يد خصوم الدين . . بما يثبت صحة هذا الدين . .

بعض الناس يقول إن ما تم بقدرة العلم هو الشيء الذي يأخذ بالعقول ويحقق أحلام الإنسان . . ولقد شرحت كيف أن مقومات الحياة الأساسية كالماء والهواء . . والزرع . . كلها من صنع الله سبحانه وتعالى . . ومن نعمه على عبيده . . ولكننا إذا نظرنا إلى مقومات الحياة المرتقبة . . أو العلمية المتقدمة . . نجد أنها كلها مما خلق الله للإنسان في الأرض . . وسخرها له . . فأنت تأتي إلى ميكرسكوب معقد . . مثلاً يريك مواقع النجوم على بعد ملايين الأميال . . وتسأل صانعه من أين صنعت هذا . . فيقول لك إنني أستورد العدسات من ألمانيا مثلاً . . والخشب الذي صنعت منه القاعدة من السويد . . والصلب مثلاً من أميركا فتذهب إلى ألمانيا للرجل الذي صنع العدسة فيقول لك أنا آتي بالرمل النقي الذي يصنع هذه العدسة من المكان الفلاني . . أو من بلدة كذا . . وتسأل الذي

يأتي بالخشب . . فيقول أنا آتي به من غابات السويد . . فتسأل من يزرع غابات السويد فيقول لك إنها تنبت . . فإذا ذهبت إلى أميركا لتسأل عن الصلب قالوا لك إنه يأتي من باطن الأرض من بلدة كذا . . والمرآة الضخمة التي تستخدم في الميكروسكوب من مادة كذا . . إلى آخره . .

إذن كل هذه الآلة العلمية المعقدة التي يدعيها الإنسان لنفسه عادت إلى الله سبحانه وتعالى . . فالرمال المستخدمة خلقها الله . . والخشب المستخدم أنبت غاباته الله . . والحديد المستخدم أوجد مناجمه الله . . وهكذا في كل شيء في العالم . . في العقول الالكترونية في مراكب الفضاء التي تذهب إلى القمر . . كلها إذا اعدتها إلى مادتها الأولية . . فأنت تعيدها إلى خلق الله في الأرض . . يوم خلق الله الأرض . . إذن كل هذه المواد التي تستخدم في أحدث تطورات العلم هي من خلق الله سبحانه وتعالى في كونه يوم خلق الكون . . وكل الظواهر الكونية من نقل الصوت والصورة . . والأشعة تحت الحمراء هي أيضاً مخلوقة منذ خلق الله الكون . . بل إن الله سبحانه وتعالى أعطاها لبعض مخلوقاته من الحيوانات قبل أن يعطيها للإنسان كالثعابين مثلاً التي يستخدم بعضها أنواعاً من الأشعة لتتحسس طريقها وتهاجم عدوها . . لم يعرفها الإنسان إلا في العصور الحديثة .

فالعلم مكتشف لآيات الله في الأرض . . مستخدماً نفس المواد الأولية التي خلقها الله سبحانه وتعالى منذ خلق الكون، ما الذي زاد؟ هو قدرة الانسان على اكتشاف خواص هذه المواد . . هذه القدرة التي أعطاها الله سبحانه وتعالى له مصداقاً للآية الكريمة . . ﴿ سَنُرِيهِمْ

آيَاتِنَا فِي الآفاقِ وفي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[1] . .

على أنني أريد أن أنبه إلى كلمة هامة وردت في الآية الكريمة . . وهي « في الآفاق » . . لم يقل الله سبحانه وتعالى في الأرض . . وهذه الكلمة لها معان بدأت تتكشف الآن بشكل أولي وستتكشف في المستقبل حيث سيكشف الله للإنسان آيات في الآفاق لا نعرفها نحن . . وهذا من عطاء القرآن المتجدد . . والمهم هنا إنني أريد أن ألفت النظر إلى استخدام لفظ الآفاق . . وعدم استخدام لفظ الأرض . . حيث أن الله سبحانه وتعالى غاية في الدقة في اختيار الألفاظ التي تطابق المعنى تماماً .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ويقول : ونأتي الآن إلى مسألة تغيير القبلة . . وهي مسألة مثار جدل بين بعض الناس . . واستخدام من المضلين يحاولون بها أن يقولوا أو يدعوا أن هناك نوعاً من التناقض ! . . فالله سبحانه وتعالى يقول إن لله المشرق والمغرب . . ويقول فأينما تولوا فثم وجه الله . . ومع ذلك يأتي فيأمرنا بأن نتجه إلى بيت الله الحرام في صلاتنا . . وإذا كان الله سبحانه وتعالى موجوداً في كل مكان وزمان . . وإذا كان التوجه إلى المشرق . . والتوجه إلى المغرب لا يكلف المؤمن شيئاً . . فهو يتجه إلى الشرق . . أو إلى الغرب . . أو إلى الشمال . . أو إلى الجنوب . . هذا لا يضيف عليه أعباء جديدة أو يحمله جهداً إضافياً . . بل هو نفس الجهد . . فلماذا تغيرت القبلة ؟ . .

وأنا أقول إن في هذه الآية إعجازاً . . ولنذكر الآية الكريمة

(١) الآية (٥٣) من سورة فصلت .

﴿ سَيَقُـولُ السُّفَهَـاءُ مِنَ النَّـاسِ مَـا وَلاّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَـانُـوا عَلَيْهَا ﴾[1] . . وأنا أريد هنا أن أنبه إلى شيء هام هـو استخدام لفظ السين في القرآن . . ولفظ السين لا يستخدم إلا لشيء مستقبلي . . أي سيحدث في المستقبل . . لا يمكن أن أقول سيفعل فلان كذا . . ويكون هذا الشخص قد قام بالفعل الذي أعنيه . . بل لا بد أنه لم يقم به . . وإنما ينوي القيام به أو حدد الوقت للقيام به . . المهم أنه لم يتم . . ولكنه قادم . .

يأتي الله سبحانه وتعالى ويقول في كتابه العزيـز لنبيه الكـريم ﴿ سَيَقُـولُ السُّفَهَاءُ ﴾ . . ومعنى سيقـولون إنهم لم يقـولوا بعـد . . ولكنهم بعد تغيير القبلة سيقـولون . . وهؤلاء الـذين سيقولـون ليسوا بـالمؤمنين . . فـالمؤمن يتبـع تعـاليم الله وقـوانينـه . . ولكن الـذين سيقولون هم أعداء الدين الذين يحاولون التشكيك فيه وصرف الناس عنه . . وإذاعة الأباطيل حوله . . يأتي هنا الله سبحانه وتعالى ويعلن « سيقول السفهاء » يعني أن الله سبحـانه وتعـالى يصف هؤلاء الناس قبل أن يقولوا بأنهم سفهـاء . . ولو أن الـذين أثاروا تغييـر القبلة من أعداء الإسلام . . كـان عندهم ذرة من التفكير . . ونـزلت هذه الآيـة الكريمة لابتعـدوا تماماً عن السؤال . . ولما سألوا لماذا تغيرت القبلة . . وكانوا حينئذ يملكون سلاحاً أقوى لهدم هذا الدين . . حيث إنهم كانوا سيقولون أن محمداً عليه السلام قد قال في كلام يقول انه كـان موحى به من الله . . ومنزلاً إليه من السماء . . إن السفهاء أعداء هذا الدين سيسألـون لماذا تغيـرت القبلة . . ونحن نقول إن تغييـر القبلة شيء إيماني لا يهمنا وأنه إذا اتجه المسلمون إلى المشرق . . أو إلى

---

(١) البقرة ، ١٤٢ .

المغرب . . فليس هذا دلالة على صحة دينهم أو بطلانه . . ولذلك فإننا لم نسأل عن هذا الأمر بالذات . . لأنه لا يمس جوهر الدين . . ولكن محمداً قال أننا سنسأل . . ووصفنا بالسفهاء . . وهكذا لم يسأل أحد عن تغيير القبلة . . ولم يحاول أحد أن ينال من الدين الإسلامي في أمر تغيير القبلة حتى نعرف جميعاً أن ما يقوله محمد ليس موحى إليه من السماء . . ولكنه كلام منه .

ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن يضع إعجازاً في هذه النقطة . والإعجاز هنا أن الله تحدى الكفار في أمر اختياري يمكن أن يفعلوه . . ويمكن ألا يفعلوه . . وزاد على ذلك يوصفهم بلفظ منفر وهو السفهاء . . فلو انهم ابتعدوا عن هذه النقطة ولم يسألوا ما ولى المسلمين عن قبلتهم التي كانوا عليها لكانوا بذلك قد هاجموا الدين في نقطة إيمانية كبرى . . وهي أن الله هو القائل . . ولذلك يجب أن يكون ما يقوله صدقاً . . والقرآن كلام متعبد بتلاوته . . لا تبديل فيه . . ولا تغيير إلى يوم القيامة . . أي إن محمداً لا يمكن ولا يستطيع لا هو ولا أحد في الدنيا كلها أن يغيره . . أو يبدل حرفاً منه . . ومن هنا فلو أن السفهاء لم يسألوا عن سبب تغيير القبلة . وتجنبوا هذا تماماً . . لكانوا بذلك قد طعنوا القرآن . . وطعنوا الدين كله . . ولكن الله قائل القرآن . . يأتي على يد خصوم القرآن . . وخصوم محمد بما يثبت الرسالة . . ويؤكد صدقها . . فيقول سبحانه وتعالى ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ﴾ . . ويقول ذلك قبل أن ينطقوا بحرف واحد . . ويأتي فعلاً هؤلاء السفهاء ويسألون ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها . . فيشهدون بذلك على صدق القرآن . . ليس في أمر يأتي به قائل القرآن . . ولا في أمر يأتي به من أنزل عليه القرآن وهو محمد عليه السلام . . ولكن في أمر

يأتي على يد خصوم القرآن الذين يريدون أن يهدموه . . وأن يشككوا الناس فيه .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي : . . نأتي بعد ذلك إلى مسألة تغيير القبلة . . وهي قضيـة تتعلق بتسليم الإنسان لله سبحانه وتعالى في أمور العبادة .

إذا أردنا أن نعبد الله سبحانه وتعالى . . فإننا يجب أن نعبده كما يريد هـو أن يعبد . . لا كمـا نريـد نحن أن نعبده . . بمعنى أن الله سبحانه وتعالى إذا قال لنـا إن الصلوات خمس . . فإننـا لا يجب أن نأتي ونقول لا سنجعلها ثلاثاً . . أو أربعاً . . أو إثنتين. . لماذا لأننا لسنا نداً لله سبحانه وتعالى ولأننا نريد أن نعبد الله بالطريقة التي حددها . . لأنه أعلم منا بطريق العبادة .

على أن ذلك يقتضي وقفة قصيرة لنبسط المسألة للأذهـان . . هب أنك مرضت . . فماذا تفعل . . إنك تذهب إلى طبيب تثق بـه . . تسأل عن الأطباء . . ثم تختار الطبيب الذي أجمع الناس على أنه طبيب معروف مشهور . . وتذهب إليه فيقول لك أنت مصاب بداء كذا . . وعلاجك هو هذا حتى تشفى . . يجب أن تأخذ هذه الأقراص . . وهذه الحبوب . . وتتبع هذا النظام في الطعام الى آخره .

أنت في هذه الحالـة واحد من ثـلاثة . . إمـا أنك تؤمن بهـذا الطبيب وبعلمه . . فتتبع ما يقوله وتسير على نظام العلاج الذي يضعه لك . . وإذا جاءك أحد وسألك مثلاً لماذا تأخذ هذا الدواء أو تتناول هذا الطعام تقول هذه أوامر الطبيب . . فلا يناقشك ولا يجادلك . . هذه واحدة . .

الثانية أنك تنكر علم هذا الطبيب تماماً . . فتأخذ ما كتبه لـك

وتمزقه وتفعل ما تريد . . أو تفعل عكس ما يقول . . أو تفعل ما تهوى نفسك . .

أمّا الطريقة الثالثة فهي أنك تكون أنت نفسك قد درست الطب . . أو أنت أو أحد أقاربك في علم هذا الطبيب من الناحية الطبية أو أعلم منه . . ومن هنا فإنك أو ذلك الذي معك ويفهم في الطب تناقش الطبيب ولكن يجب أن يكون العلم هنا متساوياً وكما يقال في الطب يقال في جميع فروع العلوم الأخرى . .

ولكننا ونحن البشر نطبق هذا على الإنسان . . ولا نريد أن نطبقه على عبادة الله سبحانه وتعالى . . تعاليم هذا الدين وتكاليفه في إفعل ولا تفعل هي من الله سبحانه وتعالى . . وأنا أحد ثلاثة . . إنسان مؤمن بالله وقدراته . . وعلمه . . أتبع ما يقول لأنني أعرف أنه أعلم مني ولهذا نجد الخطاب في القرآن دائماً يا أيها الذين آمنوا . . أي إن الله سبحانه وتعالى يخاطب المؤمنين فيما يتعلق بالطاعات . . ولا يقول يا أيها الكفار لا تفعلوا كذا وافعلوا كذا . . الخطاب هنا للمؤمن . . والمؤمن هو الذي يدرك يقيناً أن قدرات الله وعلمه أكبر وأقوى من قدراته . . ومن هذا فإنه يتبع ما قاله الله كما يتبع المريض ما قاله أكبر أطباء العالم ليشفى . . وفرق ، ولا مقارنة بين علم الله وعلم البشر . .

أما الثاني فإنسان كافر والعياذ بالله ملحد غير مؤمن . . هذا يفعل ما يشاء فليس بعد الكفر ذنب تماماً كما يمزق المريض أوامر الطبيب . . ويتبع هواه . . لا نقاش معه لأنه غير مؤمن . . فليفعل ما يريد . . وسيلقى جزاءه . .

نأتي بعد ذلك إلى النوع الثالث . . وهو أن يكون هناك نقاش

حول قضايا الإيمان في افعل ولا تفعل . . والنقاش يجب أن يدور بين علم متساوٍ . . وعقل متساوٍ وقدرة متساوية . . فمن منا علمه كعلم الله . . سبحانه وتعالى . . وقدرته كقدرة الله سبحانه وتعالى حتى يستطيع أن يجادل الله . .

قضية الإيمان . .

ولقد جاء الله سبحانه وتعالى بهذه القضية في مجال الإيمان ولم يأت بها في الأخبار عن حقائق الكون مثلاً . . أو عن معجزات الخلق . . وقال إذا أردت أن تعبدني . . فاتجه إلى الكعبة ، إن هذا لن يكلفك شيئاً . . ولم يُضِف عليك مشقة ولكن هل آمنت بي رباً وخالقاً . . أم ما زال الشك في قلبك . .

إن الله سبحانه وتعالى قد وضع في هذا معجزة وتشريعاً . . أما المعجزة . . فهي قوله تعالى ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ ﴾ واستخدام لفظ « السين » هنا معناه انه وقت نزول الآية لم يقولوا وان القول سيتم بعد نزول الآية . . والمعجزة هنا أنه وصف الكفار الذين سيسألون عن سبب تغيير القبلة بالسفهاء . . قبل أن ينطقوا بسؤالهم . .

ومعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى تحداهم في أمر اختياري يقع منهم . . وكان من الممكن لهؤلاء الكفار ألا يسألوا عن سبب تغيير القبلة . . وأن يقولوا أن هذه مسألة تتعلق بالعبادة لا دخل لنا بها . . وحينئذ كانوا يكذبون القرآن . . ويقول الناس . . أين هم السفهاء الذين أخبر الله عنهم سبحانه وتعالى . . بأنهم سيسألون عن تغيير

القبلة . . إن أحداً لم يسأل عن ذلك . . والقرآن كلام متعبد بتلاوته لا تغيير فيه ولا تبديل . . وحينئذ كانوا سيلقون ظلالاً من الشك على القرآن الكريم . . لأنهم لم يسألوا . . ولكن لأن الله هو القائل . . والله هو الفاعل جاء هؤلاء الناس وسألوا . . رغم أن الله سبحانه وتعالى وصفهم قبل أن يسألوا بالسفهاء . . وهكذا كان خصوم الدين هم الذين جاء على يدهم ما يثبت صحة هذا الدين وهذه هي المعجزة .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي قائلاً : أما التشريع . . فهو يتعلق بعبادة الله سبحانه وتعالى . . وتسليم الإنسان له . . ونحن إذا أردنا أن نعبد الله . . فإننا يجب أن نعبده كما يريد هو أن يعبد . لأن الله أعلم بطريق عبادته . .

ولنبسط المسألة إلى الأذهان . . هب أنك مرضت وذهبت إلى الطبيب . . وقال لك افعل كذا وكذا لتشفى . . فأنت إما أن تفعل واثقاً أن علم الطبيب أكبر من علمك . . وإما لا تفعل مؤمناً بأن هذا الطبيب لا يعرف شيئاً . . واما أنك تناقشه . . وفي هذه الحالة يجب أن يكون علمك مساوياً لعلم الطبيب إن لم يكن أكثر منه .

فإذا كان ذلك يتم مع البشر . . فكيف مع الله سبحانه وتعالى . . ومع تعاليم هذا الدين بافعل ولا تفعل . . وكل ما أمر به وما شرعه الله سبحانه وتعالى . . أنني أحد ثلاثة . . إنسان مؤمن بالله وقدراته وعلمه . . أتبع ما يقول لأنني أعرف أنه أعلم مني بما فيه شفاء النفس في الدنيا . . وحسن الجزاء لها في الآخرة . . ومن هنا اتبع تعاليم القرآن . . ولذلك يخاطب الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز المؤمنين دائماً فيقول : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ ذلك أن المؤمن يدرك

يقيناً أن قدرات الله وعلمه أكبر وأقوى من قدراته . . ومن هنا فإنه يتبع ما قاله الله . . كما يتبع المريض ما قاله أكبر أطباء العالم ليحصل على الشفاء . . وفرق كبير ، ولا مقارنة بين علم الله . . وعلم البشر .

أما الثاني فإنسان كافر ملحد . . وهذا يفعل ما يشاء . . فليس بعد الكفر ذنب . . تماماً كما يمزق المريض أوامر الطبيب ويتبع هواه .

نأتي بعد ذلك إلى النوع الثالث وهو أن يكون هناك نقاش حول قضايا الإيمان . . في افعل ولا تفعل . . والنقاش يجب أن يدور بين علم متساوٍ . . وعقل متساوٍ . . وقدرة متساوية . . ومن هنا علمه كعلم الله سبحانه وتعالى . . وقدرته كقدرة الله سبحانه وتعالى حتى يستطيع أن يجادل الله . .

ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى يأتي بقضية إيمانية كبرى . . ﴿ **لله المشرق والمغرب** ﴾ . . الله موجود في كل مكان . . ﴿ **وأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ . . وتغير القبلة لا يكلف المؤمن شيئاً . . أي إن اتجاهه في صلاته إلى الشرق أو الغرب . . أو اليمين . . أو اليسار . . لا يضيف عليه تكليفاً ولا يحمله أي مشقة . . ولكن هنا قضية إيمانية كبرى . . الاتجاه إلى الشرق لا مشقة فيه . . والاتجاه إلى الغرب لا مشقة فيه . . اذن مستوى التوجه هنا بالنسبة للمؤمن . . فقول الله اتجه إلى الشرق . . مثل قوله تعالى اتجه إلى الغرب . . هذه لا تحمل مشقة . . وهذه لا تحمل مشقة . . والمسألة هنا هي أن نعرف يقيناً أننا نتبع أوامر الله سبحانه وتعالى فيما قاله . . في افعل ، لا تفعل . . فهناك أشياء غيبية عنا أنبأنا بها الله في القرآن الكريم . . ولو لم ينبئنا بها لما عرفناها . . ولما وصل اليها الإنسان أبداً . . هناك الجنة

والنار . . والثواب والعقاب والحساب والآخرة . . وهناك ما وعدنا الله به . . وهناك أشياء في الدنيا تحدث . . وعقلنا قاصر عن أن يعرف الحكمة منها . . وهذه الأشياء يجب أن نعرفها يقيناً لأنها أتت عن الله سبحانه وتعالى . . هناك الصلاة . . والزكاة . . وأحكام الدين . . والصوم . . إلى آخر ما قرره وشرعه الله سبحانه وتعالى من أحكام لعبادته وطاعته . . وهذه لها حكمة كبرى قد لا أدركها أنا . . لأن عقلي لا يمكن أن يكون مساوياً لعقل الله سبحانه وتعالى . . ولا تستطيع قدرتي ولا علمي أن يصلا إلى قدرة الله سبحانه وتعالى . . ولا علمه . . وحكمته . . ومن هنا فلا مقارنة . . لأن الله ليس كمثله شيء . . والخطر كل الخطر أن يدخل إلى قلب المؤمن ما يوسوس له . . بأنه يجب أن يناقش هذه العبادات بمنطقه هو وبعقله هو . . وقد أثبتنا من خلال الحديث السابق . . أن ما فوق قدرة العقل موجود . . وإن ما فوق قدرة الإنسان موجود . . وإن لم نكن نعرف عنه شيئاً . . وإن الله بقدراته يكشف لكل جيل من البشر ما كان الجيل الذي سبقه عاجزاً عن اكتشافه ليثبت أن ما فوق قدرة العقل . . وفوق قدرة البصر . . وفوق قدرة السمع موجود . . ولعل ما نعيش فيه اليوم من علم يثبت ذلك . . فالعلم لم يصنعه الإنسان . . ولكنه اكتشف الطيران مثلاً . . اكتشفه الإنسان ولكنه لم يصنع الغلاف الجوي الذي يمكنه من الطيران . . ولكن الذي صنع هذا الغلاف هو الله سبحانه وتعالى . . ودلنا على استخدامه . . ولكن الغلاف الجوي كان موجوداً . . وقدرة طيران الإنسان حول الأرض كانت موجودة منذ بدء الخليقة . . وكذلك الميكروبات مثلاً كانت موجودة . . ولكنها كانت فوق قدرة البصر . . إلى أن تم اكتشاف الميكروسكوب . . وكذلك أن تسمع ما يدور في الدنيا بواسطة استخدام الأثير أو خواص طبقات الجو العليا

. . كل ذلك كان موجوداً لم يخلقه الإنسان . . ولكن الله سبحانه وتعالى أدخله في علم البشر . . ليثبت أن ما فوق القدرة البشرية موجود . .

هنا قضية إيمانية كبرى . . بسطها الله وقربها إلينا بما وضعه في هذه الأرض من علم أتاح للعقل البشري اكتشافه . . ولكن برغم ذلك كله كما قلت يأتي من يوسوس للإنسان ليقول له لماذا تصوم مثلاً ؟ . . وماذا يفعل الله سبحانه وتعالى بامتناعه عن الطعام والشراب . . وهو غني عن العالمين ؟. بماذا سيزيد ملك الله سبحانه وتعالى إذا أنت امتنعت عن الطعام والشراب . . وصمت شهر رمضان . . وما الذي سينقص إذا أفطرت . . أو لماذا تقوم بالصلاة خمس مرات في اليوم . . ولماذا لا تصلي مرتين فقط . . مرة عند استيقاظك من النوم . . وأخرى عند ذهابك إلى النوم ؟. إلى آخر هذا الكلام الذي يدخل النفوس محاولاً أن يضعف الإيمان فيها . . وهنا نقول انك لا تستطيع أن تناقش هذا . . ولا تعرف الحكمة في التكليف به . . لماذا ؟ لأنك في عقلك وتفكيرك لست مساوياً لقدرات الله سبحانه وتعالى . . وما دمت قد آمنت . . ووثقت بأن الله هو الخالق . . وهو الفاعل . . وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذا الكون . . وهو القوة الكبرى الذي ليس كمثله شيء . . يعلم ما لا تعلم . . إذا وثقت في هذا . . ودخل الإيمان إلى قلبك . . ففي هذه الحالة وجبت عليك طاعة الله سبحانه وتعالى فيما يأمرك أن تفعل أو لا تفعل . . لأن الله سبحانه وتعالى هو أعلم منك بهذا كله . . وهو يطلب منك الطاعة والتسليم . . وأنت لم تصل إلى الإيمان إلا إذا استسلمت وسلمت وجهك لله . . فيما يقول في افعل ولا تفعل . . تماماً كما إنك لن تشفى إلا إذا نفذت تعليمات الطبيب لعلاج مرضك . . والدين رحمة وشفاء

للمؤمنين . . وهو يوصلهم إلى النفس المطمئنة في الدنيا التي لا يفزعها شيء ولا يحطمها عاصفة . . النفس المجزية في الآخرة . . الموعودة بجنة الله . . ومن هنا كان تغيير القبلة امتحاناً للإيمان . . شيء ليس فيه مشقة ولا زيادة في التكليف . . ولكنه قضية ايمانية كبرى . . ما دام الله قد قال . . فلا بد أن أفعل . .

ولقد جاء الله سبحانه وتعالى بهذه القضية في مجال الإيمان والعبادة . . ولم يأت بها في أي مجال من المجالات الأخرى . . أي إن الله سبحانه وتعالى أراد أن تكون امتحاناً للإيمان في النفس . . وليس مثلاً دليلاً على إعجاز القرآن . . أو إخباراً بشيء سيأتي . . أو إظهاراً لحقائق الكون . . أو تحدثاً عن نعم الله على عباده . . أو رواية عن الأنبياء السابقين . . أو وصفاً للنار والجنة . . والجزاء والعقاب . . أو أي شيء مما احتواه القرآن الكريم . . ولكنه جاء بها كقضية إيمانية في افعل ولا تفعل . . فقال أنت تريد أن تعبدني . . وإذا أردت أن تعبدني فأنا أقول لك . . افعل كذا وكذا . . وأنا أقول لك إتجه إلى الكعبة . . وهذا الاتجاه لن يكلفك شيئاً . . ولن يضيف عليك عبئاً . . ولكنه اختبار لطاعتك لي . . وإيمانك بي . . وهل استقر هذا الإيمان في قلبك أم لا . . وهل آمنت بي رباً وخالقاً . . أم لا يزال هناك شك في قلبك . فإذا كنت قد آمنت بي رباً وخالقاً . . إيماناً عن يقين . . فإنني أقول لك . . إنني وأنا الموجود في كل مكان . . أريدك أن تتجه في صلاتك إلى الكعبة . . إلى بيتي الحرام . . وهذا لن يكلفك شيئاً . . ولكنه سيظهر مدى الإيمان في قلبك . . ومدى طاعتك لي . .

وهكذا كانت قضية تغيير القبلة . . قضية امتحان للإيمان لنعرف

من الذي يلتزم بأمر الله . . ومن لا يلتزم بهذا الأمر . . ويـذكر الله سبحانه وتعالى هذه الحكمة في قوله . . ﴿ **وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ** ﴾[1] . .

إذن فـالمشكلة لا مشقة فيهـا . . ولكنها امتحـان للإيمـان . . وتثبيت له في القلب ليظهر أمام المؤمنين جميعاً من يتبع الرسول . . ومن ينقلب على عقبيه . . من يطع الله حقيقة . . ومن يطع الله وفي قلبه شك . . وفي نفسه اهتزاز .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعـراوي قائـلاً : وهذا يدلك على أن كل أحداث الكـون . . إنما هي مـرسومـة وموضـوعة كإختبارات للإيمان في النفس . . وليكون الإنسان شهيـداً على نفسه يوم القيامة . . والنفس البشرية في كل دقيقة من حياتها هي في اختبار للإيمان بالله . . منذ اللحظة التي تستيقظ فيها . . حتى اللحظة التي تنـام . . الاختبارات مـوجودة . . والقلم يكتب . . ثم ينـام الإنسان فيرفع القلم . . فإذا استيقظ يعود القلم مرة أخرى . . ولقد جعل الله سبحانه وتعالى من تغيير القبلة قضية إيمانية كبرى كأساس في الـدين . . ووضعهـا في التكليف ولم يجعل فيهـا زيادة في المشقـة لتكـون اختباراً خالصاً للطاعة . . ولمن يتبع الله ويتبع رسوله . .

* * *

---

(١) البقرة ، ١٤٣ .

طريق الله .. والعلم

هناك النفس المطمئنـة .. والنفس اللوامة .. والنفس الأمـارة بالسوء .. وهذه النفوس كلها تواجه الحياة بطريقة مختلفة .. وتنظر إلى الإيمان بشكل يجعل كلاً منها يصل إلى نتائج غير التي تصل إليها الأخرى .. والنفس البشرية من يوم الخلق إلى يـوم القيامـة .. في صراع بين الإيمان .. وما يوسوس لها الشيطان ..

والنفس البشرية في حياتها معرضة لأشياء كثيرة .. العقل يقول شيئاً .. والعواطف تقول أشياء .. وهوى النفس يحاول أن يجعلهـا تفلت من كل رقابة هي وضعت لصالح النفس البشرية ..

تلك كانت مقدمة قبل أن أستكمل حديث فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي عن الله والنفس البشرية .. ولقد توقفنا في الأسبوع الماضي عند تغيير القبلة .. وقال فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي إن هناك في الدين قضايا عقل .. وقضايا إيمان .. أما قضايا العقل فالله قد تركها لمنطق العقل وتدبيره .

والمطلوب من العقل أن يفكر ومطلوب منه أن يعمل .. ومطلوب منه أن يكتشف آيات الله في الكون .. والمطلوب من العقل أن يفكر .. في الدنيا .. ومطلوب منه أن يرسم طريق حياته الذي يتمناه

.. وهـذه في قضايـا العقل .. وهـو في الزراعـة مثلا يـطور زراعته وأرضه .. وفي الصناعة يبحث عن الخامـات الجديـدة .. ويكتشف الآلات الحديثة إلى آخر ما يمكن أن تكـون فيه قضـايا العقـل فيما خلقه الله له .. فإذا جئنا إلى قضايا الإيمـان .. فتلك مسألـة أخرى تماماً .. هنا في قضايا الإيمان .. إمـا أن تؤمن بالله أو لا تؤمن .. ليس هناك حل وسط في أن تؤمن بالله في أشياء .. ولا تؤمن بـه في أشياء أخرى .. والله سبحانه وتعالى إذا وضعت شريكاً له في شيء .. تركه ولم يتقبله .. لأنه غني عن العالمين .. فما أشركت فيه شيئاً غير الله .. فليكن لمن أشركت .. الله غني ولا يتقبل الشرك ..

إذن فقضية الإيمان أن تؤمن بـالله أو لا تؤمن .. الإيمان بـالله معناه أنك قد آمنت .. وصدقت بأن هناك قوة كبرى منـزهة عن كـل شيء .. قد آمنت بأن الله سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء في علمه .. وخلقه .. وفضله .. ورحمته .. وقوته .. وانتقامه .. وعذابه .. وانه سبحانه وتعالى ليس كمثله شيء في كل ما تعرف وما لا تعرف .. ومن هنـا فإننـا لا يجب أن نقيس علمنا بعلم الله .. ولا قـدرتنا بقدرة الله .. ولا فهمنا بفهم الله .. فإذا قال الله .. سبحانه وتعالى قُل .. فأنا لست مؤهلاً .. لأن أقـول لماذا ؟.. وأن أنـاقش .. ذلك أن المناقشة يجب أن تكون بين علم متساوٍ .. وعقل متساوٍ .. فلا نستطيـع أن نقيم مناظـرة علمية بين أعلم أهـل الأرض .. وبين إنسان لم يعرف العلم .. عاش طول حياته في مكان مهجور لا يعرف شيئاً عن الدنيا .. ثم يأتي هـذا الإنسان الـذي لا يعرف شيئـاً ليقف ويناقش .. أعلم إنسان في الأرض .. يناقشه في العلم .. لـو أننا أقمنا هذه المناقشة لكنا سخرية العالم أجمع .. لأنه لا وجه للمقارنة .. ولاتهمنـا الناس بالجنـون .. والسفه .. والتفاهة .. وقلة العقل

.. مع أننا هنا نستخدم الفارق في العلم البشري فقط .. فما بالك بالفارق بين علم الإنسان .. وعلم الله سبحانه وتعالى ..

ولكن العجيب .. والعجيب جداً أننا حينما نستخدم الفرق بين العلم البشري .. وعلم الله سبحانه وتعالى .. نجد بعض الناس يجادل ويدعي أنه مؤهل لمناقشة الله في علمه .. ولمناقشة الله في طريق الحياة التي رسمها للبشر .. ولا يخجل مثل هذا الإنسان أن يقف ويجاهر بذلك .. ولا يخجل البشر الذين حوله .. وهم يقولون هذا الكلام الذي يدعو إلى السخرية .. ولا مقارنة بين علم الله .. وعلم البشر ..

إذن الإيمان بالله سبحانه وتعالى .. هو تسليم لقدرات الله التي ليس فوقها قدرة .. تسليم لعلم الله الذي ليس فوقه علم .. وتسليم لله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء .. هذا هو مدخل الإيمان إلى النفس البشرية .. وهذا المدخل قد لا يأتي إلا بعد تفكر وتدبر في الكون وآياته .. ولكنه عندما تستكين النفس ويطمئن القلب .. ويقول الله أفعل كذا فنفعل .. لماذا ؟ لأن الذي يقول هو أعلم مني .. ولأنه يحبني .. لأن الله يحب عباده .. ويغفر لهم خطاياهم ويسامحهم ويتوب عليهم .. الله يحبني ... ويريد هدايتي .. ومن هنا فهو يفتح لي الطريق .. ويبين لي آياته في الكون .. ويرينا المعجزات في الأرض مما خلق .. بل إنه يري كل جيل منا ما كان خافياً على الجيل الذي سبقه . ومن هنا فإنه حين يقول افعل فهو يقولها .. لأنها طريق السعادة لي .. والراحة لنفسي وقلبي .. لأنها طريق الحياة الطيبة. . الله سبحانه وتعالى وعد المؤمنين بالحياة الطيبة في الدنيا .. والحياة الطيبة هي نفس راضية مطمئنة .. تخلصت من

القلق . . ومن الخوف . . ومن الفزع . . ومن كل ما يحطم النفس البشرية ويحيلها إلى جحيم . . فإذا قال لي الله سبحانه وتعالى . . افعل . . فهو يريد السعادة لي بهذا الفعل في الدنيا والآخرة . . لأن فعلي لن يزيد في ملك الله شيئاً وعدم فعلي لن ينقص ملك الله في شيء . . فالله حين يقول افعل يقدم لي الحياة الطيبة فيما افعل . . وحين يقول لا تفعل يقيني الحياة الشريرة بما لا افعل . . ومن هنا . . ومن منطلق هذا الإيمان . . وجبت الطاعة . . وليس النقاش . . ففيم يقول الله سبحانه وتعالى فيه افعل أو لا تفعل . . إذا كنت مؤمناً فإنني أعرف أن هذا لخيري وسعادتي . . فأنطلق نحوه . . وأفعله . . وأنا أشعر بغبطة وفرح . . إنني قد استطعت أن اختار الحياة الطيبة . . ليس على حسب قدراتي أنا . . وفكري أنا . . ولكن حسب قدرات الله سبحانه وتعالى الذي ليس كمثله شيء . . وإذا كنت غير مؤمن . . بدأت أناقش وأفلسف حسب قدراتي ولن أصل إلى شيء . . فأنا في الإيمان أفعل ولا أفعل . . أختار بين حياة رسمت حسب قدرات الله سبحانه وتعالى . . وحياة يصورها لي عقلي . . والفرق بين الاختيارين هو الإيمان . . الإيمان بأن الذي وضع أسس الحياة الأولى هو أقدر مني . . وأعلم مني . . وهو خالقي . . وهو يريد لي الخير . . ويريد أن يخلصني من الشقاء . . ومن الكبد الذي يعانيه الإنسان في الحياة . . ومن هنا كان إيماني هو أساس الطاعة . . وليست قدرات عقلي . . أما في أمور الحياة العادية التي تركها الله لاختياراتي . . ولم يقل افعل ولا تفعل . . فهنا يأتي دور العقل في المفاضلة والاختيار . .

ومن هنا نجد الإنسان المؤمن قوياً قادراً . . لا تهزه شدائد الدنيا كلها : . لماذا ؟ . . لأنه يحس انه مهما انعدمت أسباب العقل وتوقفت

. . فان الله الذي رسم له طريق هذه الحياة التي يتبعها . . قد وعده أنه سيحييه حياة طيبة . . وهو لا يمكن أن يتخلى عنه أبداً . . بل إنه سيفتح له من الأبواب . . ويوجد له من الأسباب ما يجعل له مخرجاً من الضيق الذي يعانيه مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** ﴾[1] .

وهكذا كان تغيير القبلة عملاً من أعمال امتحان الإيمان في النفس . . ذلك أن الإنسان المؤمن فيما يتعلق بالعبادة يتبع تعاليم الله الذي هو أعلم وأقدر على رسم هذا الطريق . . ولذلك قال الله سبحانه وتعالى ﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم** ﴾ . وقد تحدثت في الحلقة الماضية عن المعجزة في هذه الآية . . وقلت إن استخدام « السين » هنا معناه أن الله تحدى قوماً يحاربون دينه . . وصفهم بالسفهاء . . قبل أن يقولوا ما سينطقون به . . وهذا ما تبينه كلمة السين الموجودة في لفظ سيقول . . أي إنهم لم يقولوا . . وطبعاً لا بد أن يتبع الفعل القول هنا . . بمعنى أنه لا بد أن تتغير القبلة . . ثم يقولون بعد ذلك . . أو يتحدثون عن تغيير القبلة . والله سبحانه وتعالى وصفهم بالسفهاء . . وكان من الممكن لكي يكذبوا هذا الدين أن يمتنعوا عن الكلام في تغيير القبلة على أساس أنها أمر يخص العبادة . . ولكن كون أنهم جاءوا وجادلوا . . فكان الله قد استخدم الذين يحاربون الدين في إثبات صحة هذا الدين .

على أن هناك وقفة في استخدام لفظ السفهاء . . لماذا وصفهم الله سبحانه وتعالى بالسفهاء . . ولم يستخدم لفظاً آخر . . لأن السفيه هو الإنسان الناقص العقل . . غير كامل التفكير الذي يأتي بأشياء لا

---

(١) الطلاق ، ٢ .

تتمشى مع الفكر السليم . . ولقد جاء هؤلاء الملحدون والمحاربون للدين ليجادلوا في قضية هي فوق قدرة عقولهم . . وفي أمر شرعة الله لعبادته فوضعوا أنفسهم في مكان ذلك الذي يستطيع أن يشرع لعبادة الله . . بقدرة وحكمة وعلم . أكثر وأقدر من الله سبحانه وتعالى . . وهذه سفاهة تفكيرهم . . وفي أنهم وضعوا عقولهم العاجزة في مقارنة مع قدرة الله سبحانه وتعالى . . في أمر يختص بالعبادة والطاعة . .

على أن الله سبحانه وتعالى يعطينا ما يقرب إلينا . . ذلك الذي هو فوق قدراتنا . . لنعرف أو نلمس الحكمة فيه . . وهو يفعل ذلك رحمة بعقولنا ونفوسنا . . فإذا قال الله سبحانه وتعالى . . لا تأخذ مال غيرك . . فليس هذا منعاً لي من الحصول على مال غيري فقط . . ولكنه حماية لي من أن يحصل أي فرد في المجتمع على مالي الخاص . . أي إن الله يحميني عندما يضع حرمة المال الخاص . . يحميني من الملايين التي تعبث في الأرض . . والتي يمكن أن تعتدي على مالي وتأخذه . . فهذا التحريم إنما هو رحمة بي . . وحماية لي من ملايين البشر الذين لا أستطيع ولن أستطيع أن أقاومهم . . ويأتي الله سبحانه وتعالى بقدرته وقوته ليجعل هذا قانوناً عالمياً يمشي في العالم كله رحمة للناس . .

وعندما ينهاني الله عن أن أشهد الزور . . أو أن أكذب . . أو أن أسرق الناس في الميزان . . أو غير ذلك . . فهو في الواقع يوفر الحماية لي من كل هذا . . فأنا فرد في مجتمع لو أبيحت فيه هذه الحرمات لكنت أول ضحية فيه . . ولعمَّ الشقاء المجتمع كله . . فالفرق بين حكم الغابة الذي لا يكون الإنسان فيه آمناً مطمئناً على نفسه . . وبين الحكم الذي يعطي الأمان للبشر . . هو فرائض الله في

إفعل ولا تفعل . . وهذه الفرائض كلها لا يمكن أن تحقق أهدافها إلا إذا دخل الإيمان القلب . .

على أن هناك سؤالاً أخيراً يطرح نفسه هنا . . وهو الكوارث التي تصيب الإنسان في الحياة . . في حياته . . وفي نفسه . . وفي بيته . . في حياته حيث الخوف والقلق . . وعدم الاطمئنان إلى الغد . . وفي نفسه حيث الحيرة والصراع الشديد . . بين ما يحققه من لذة عاجلة أو مصلحة عاجلة . . أو هدف عاجل يريده . . وبين ما تقتضيه تعاليم الله سبحانه وتعالى بالنسبة لهذه الأشياء . . أما في بيئته فهو ما يحدث في الأرض من فيضانات وزلازل . . وأشياء مدمرة قد تنشر البؤس والدمار في مجموعة من البشر . . وهذه الأشياء الثلاثة هي ما تبقى حول موضوع « الله والنفس البشرية » . وكلها لها إجابات وإيضاحات تجعل العقل يقترب أكثر . . وأكثر من الله سبحانه وتعالى . .

إذا بدأنا بالنفس البشرية فهذه قصة طويلة بدأت منذ أول الخليقة وتنتهي يوم القيامة . . ذلك أن الإنسان يظلم نفسه في كثير من الأحيان ظاناً أنه يقدم لهاالخير . . ويفعل سوءاً فلا يحصل على شيء إلا الذنب . . وهو في كلتا الحالتين يحاول أن يبرز ما يفعل بأنه خير . . كيف ذلك ؟ . . .

* * *

أسرار النفس البشرية

« الإنسان يريد أن يخلّد في الحياة فلا يموت ويريد مالاً لا ينتهي ولا يذهب . وهذا هو مدخل الشيطان للنفس والله قد جعل الأجل بيده والرزق بيده ليقينا الانحراف ويبعدنا عن الإغراء الكاذب ولكننا رغم ذلك نبحث عن الخلود . . وعن المال الذي لا يزول ولا ينتهي » . .

إن مدخل الشيطان إلى النفس البشرية . . حدده الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بأنه جنة الخلد وملك لا يبلى . . هذا هو المدخل الذي استطاع الشيطان ان يخرج به آدم وحواء من الجنة ... وأن يجعلهما يعصيان الله سبحانه وتعالى . . فالإنسان يريد الخلود . . إنه لا يريد الحياة أن تنتهي . . يود أن يعمر ألف سنة .. ومائة ألف سنة . . والبحث عن الخلود يلازم النفس البشرية منذ أن بدأت حياتها على الأرض . . منذ أن خلقها الله حتى الآن . . الإنسان يبحث عن الخلد . . وعما يبعد الموت عنه . . رغم أن الله سبحانه وتعالى قد أكد في كتابه العزيز أنه لا مفر من الموت . . فإن الإنسان يحاول أن يهرب بشتى الطرق . . والأبحاث عن إطالة الحياة .. وعن تجميد جسم الإنسان حتى يعالج من أمراض تسبب الموت . . قد يكتشف

لها دواء في المستقبل . . الأبحاث عن هذا ما زالت جارية . .

ولكن من ذلك الذي يكره نهاية الحياة . . إنه الإنسان غير المؤمن لماذا ؟ . . لأن الموت خلق كالحياة تماماً . . فالله سبحانه وتعالى قال ﴿ الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾[1] . . إذن فالموت خلق كالحياة . . ولكننا نحب الحياة . . ونتمسك بها . . والموت للإنسان المؤمن انتقال من حياة يتمتع فيها ويحاسب فيها على حسب قدراته هو إلى حياة يتمتع فيها ويحاسب فيها على حسب قدرات الله سبحانه وتعالى . . والإنسان في بحثه عن الخلود . . هو مستعد أن يفعل كل شيء . . وأي شيء . .

والمدخل الثاني بعد الخلود . . هو ملك لا يبلى . . أي مال لا ينتهي . . فالإنسان يريد حياة لا تنتهي ومالاً لا ينتهي . . فالله سبحانه وتعالى قد جعل الاثنين بيده . . ليقي الإنسان من دخول الشيطان إلى نفسه . . فجعل لكل أجل كتاباً . . وجعل الرزق بيد الله سبحانه وتعالى بغير حساب . . ومن الذي يستطيع أن يحاسب الله جل جلاله وهو العزيز القدير . .

إذاً الله سبحانه وتعالى أراد أن يقي الإنسان من الانحراف في الحياة . . ومن الابتعاد عن الحياة السعيدة إلى حياة الشقاء . . فرسم له الطريق . . ووضع له منهج الحياة التي هو خالقها . . وهو الأعلم بها . . وقال في كتابه العزيز ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[2]، وقال ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فيهَا مَا تَشْتَهِي

(١) الملك ، ١ .
(٢) النحل ، ٩٧ .

أنفُسُكُمْ . . وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴾[1] . .

وبعـد أن رسم الله سبحانـه وتعـالى أسس الحيـاة وسبلهـا . . ووضع منهجاً لها . . قال لنا : إن الشيطان سيحاول أن يغريكم بالمال . . وبالخلود . . وأنا أقول لكم سلفاً حتى لا يكون لكم حجة . . إن لكل منكم أجلاً . . فإذا جاء أجلكم لا تستقدمون ساعة ولا تستأخرون وأقول لكم إن الشيطان سيعدكم بمال لا يفنى ولا يذهب ولا ينتهي . . وأنا أقول لكم إن ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾[2] . . وإنني أرزق من أشـاء بغير حسـاب . . حتى لا تكون لكم حجـة في اتباع الشيطان .

وبالرغم من هذا . . فإن الشيـطان يجد المـدخل بسهـولة إلى النفس البشرية . . وكلما تقدم الـزمن . . وتقدم العلم . . وتقـدمت الرفاهية التي يستطيع أن يضعها في حياة الانسان . . انفتح في النفس البشرية مدخل أوسع للشيطان . . ذلك أن المال يستطيع أن يحقق ما لَم يكن من الممكن تحقيقـه في الماضي . الإنسـان يستـطيـع الآن أن يمتلك سيارة وطائـرة . . وتكييف هواء . . وأن يقـدم له المـال حياة سهلة . . ويجعله سيداً مطاعاً . . ومن هنا كلما اتسعت دائرة الرفاهية التي يستطيع المال أن يحققها في حياة الإنسان . . زاد فهم الإنسان للمال . ولقد شاء الله سبحانـه وتعالى أن يجعـل للاستمتـاع البشري حدوداً ليفهم الناس أن كثرة المال لا قيمة لها في حياة البشر . . فجعل المرض في كثرة الطعام . . وجعل الداء في الطعام الفاخر الدسم . . وجعل العجز في عدم الحركة التي توفره الرفاهية . . وجعـل قدرات

---

(١) فصلت ، ٣١ .
(٢) الذاريات ، ٢٢ .

الجسم تتلاشى في الإسراف في الاستمتاع البشري أياً كان نوعه . . ووضع سر الصحة في الأشياء التي لا تكلف الإنسان مالاً كثيراً . . فقليل الطعام غير الدسم . . وغير الفاخر . . أساس اعتدال الصحة . . والمشي على القدمين الذي يستطيعه الغني والفقير على حد سواء . . ودون أي مشقة أو تكلفة . . هو الطريق الوحيد الآن لعلاج معظم الأمراض بما فيه أمراض القلب . . والطبيب ينصح أولئك الذين لا يتحركون إلا خطوات قليلة لأن المال يرفع عنهم المشقة . . بالمصعد والسيارات الفاخرة . . والخدم . . والحشم الذين يوصلون اليهم كل شيء وهم جالسون في أماكنهم لا يتحركون . . ينصح هؤلاء بأن يسيروا ساعة أو ساعتين كل يوم . لأن هذا هو أساس الصحة . . والهواء الطلق الذي يوجد في الأماكن الخلوية البعيدة . . هو الهواء النقي غير الملوث . . لم تفسده يد الانسان . . وهكذا كانت الصحة في قلة الطعام غير الدسم . . وفي المشي خصوصاً في الأماكن ذات الهواء الطلق . . وفي عدم الإسراف في أي شيء . . وهذا متاح للبشر جميعاً . . غنيهم . . وفقيرهم . . بل إن حكمة الله سبحانه وتعالى في أنه ما من نبي إلا ورعى الغنم . . ترينا في أحد جوانبها قواعد الصحة التي يدفع بعض الناس الآن عشرات الألوف من الجنيهات ليصلوا إليها . . وراعي الغنم لا بد أن يسير على قدميه فترة طويلة في هواء نقي غير ملوث . . وهو لا يستطيع أن يحيط نفسه بأولئك الذين يعدون له الطعام الفاخر الدسم . . ومن هنا فهو يبقى صحيحاً سليماً معافى . . حتى يأتي أجله . .

وبالرغم من هذا يبقى الطمع البشري بلا حدود . . بل إن الذي يملك مالاً لا يستطيع أن ينفقه فيما بقي من عمره . . لا يكتفي بذلك . . وإنما يريد أكثر وأكثر . . والنفس إذا هوت المال بدأت المفسدة

.. فأنا أسرق لأحصل على المال .. وأشهد الزور لأنال بعض المال .. وأقول غير الحق .. وأعمل بغير ما يرضي الله .. وأخدع .. وأغش .. وآكل حقوق الناس .. كل ذلك لأحقق لنفسي ما وعدني الشيطان به كذباً .. وهو ملك لا يبلى .. أي مال لا ينتهي ولا يفنى مهما مر الزمن .. مع انني لو كنت مؤمناً عن يقين لعلمت أنني لن أصل بعلمي إلا إلى الرزق الذي قسمه الله لي .. ولآمنت أن الله يرزق من يشاء .. وانني لو اتجهت إليه لأعطاني الرزق .. ومنحه لي .. والرزق الحرام لو صبرت عليه قليلاً وعملت لأوصلني الله إلى المال الحلال .. لأنه مقسوم لي ..

ومن هنا فإنني أظلم نفسي حين أرتكب السوء .. وانطلق متبعاً هوى النفس .. ذلك إنني في الحقيقة لا أصل إلى شيء إلا الذنب .. ولا أكسب شيئاً إلا الخطيئة .. على أن هناك من يرتكب من السيئات مقابل الحصول على متعٍ عاجلة .. ومن يظلم نفسه .. والمعنى هنا ليس واحداً .. الكلمة ليست مرادفة .. بل إن الفرق كبير بين المعنيين ..

عندما يظلم الإنسان نفسه

* الإنسان الذي يرتكب المعصية . . يفعل ذلك لأنه ضعيف ، يريد الحصول على منفعة عاجلة . . أما ذلك الذي يظلم نفسه فإنه يرتكب المعصية . . لمجرد المعصية . . فالإنسان الذي يمنع الخير عن الناس حسداً ، والذي يهدم اسرة أويفرق بين الأب وابنه وبين الزوج وزوجه ظلم نفسه بارتكاب الإثم بلا هدف إلا الأذى *

إن النفس البشرية لا ترضيها الحياة المادية وحدها . . ولا يسعدها المال فقط . . بل هي مزيج من الروح والمادة . . ومن هنا فإن أكثر الأمم تقدماً في الحياة المادية . . أعلاها في نسبة الانتحار . . بينما كان يجب أن يكون العكس صحيحاً . . إذا كان التمتع البشري هو قمة السعادة للنفس . . فقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يضع للتمتع البشري حدوداً . . حتى يقيد الطمع البشري . . فالطعام لذة . . ولكن كثرة الطعام تصيب الجسم بالأمراض والعلل . . والشراب لذة . . ولكن الافراط فيه يؤدي إلى أمراض قاتلة . . وكذلك كل ما تهواه النفس إذا مشت ضمن الحدود التي أتاحها الله . . حصلت عليه جميلاً مبهجاً . . وابتعدت عن أضراره ومفاسده . . وإذا أطلقت لهواها كل ما تريده فستتمتع أياماً . . ثم تقاسي بقية العمر . . ويملؤها الندم .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي أن هناك من يرتكب السوء . . ومن يظلم نفسه . . وبعض الناس يظن أن استخدام اللفظين في القرآن الكريم . . ظلم النفس . . وارتكاب السوء ملتزمان في المعنى . . فإن من يرتكب سوءاً ومعاصٍ . . إنما يقود نفسه إلى الهلاك في الدنيا وفي الآخرة . . ولكن الذي يرتكب السوء يفعل شيئاً . . والذي يظلم نفسه يفعل شيئاً آخر .

الذي يرتكب السوء . . يرتكب المعاصي لفائدة عاجلة . . تزين له نفسه أنه سيحصل بها على شيء . . فالذي يسرق مالاً مثلاً . . يريد فائدة عاجلة بأن يتمتع بانفاقه . . الذي يأخذ حقوق غيره . . إنما يحصل على فائدة عاجلة يأخذ ما لا جهد له فيه . ولا حق له فيه . . والذي يقوم بمعصية . . إنما يحصل على لذة عاجلة تنتهي بسرعة . . ويبقى الذنب . .

ولكن الذي يظلم نفسه . . انسان آخر تماماً . . انه لا يفعل ذلك للحصول على فائدة عاجلة . . ولكنه يرتكب المعصية دون أن يستفيد . . فالإنسان الذي يشهد زوراً مثلاً ليضر إنساناً آخر . . قد ظلم نفسه . . ارتكب إثماً . . ولم يتمتع بشيء . . والإنسان الذي يمنع الخير عن الناس . . لمجرد منع الخير حسداً أو حقداً . . إنسان ظلم نفسه . . ذلك أنه لم يعطِها شيئاً . . وإنما أعطاها الذنب . . والإنسان الذي يحاول ان يفرق بين المرء وزوجه . . وبين الابن وأبيه . . وأن يهدم أسرة . . أو يهدم عملاً ناجحاً . . دون أن يستفيد هو شيئاً . . إنسان ظلم نفسه . . لأنه أعطاها المعصية . . ولم يعطها شيئاً . . وهذه هي النفس الأمارة بالسوء . . أي إنها تجد لذة حياتها في السوء الذي يصيب الآخرين . . تجد لذة لحياتها في أن تهدم بيتاً

سعيداً . . أو تمنع رزقاً عن إنسان . . او تضيّع حقاً على صاحبه . . أو تقدم شهادة زوراً تضع بها إنساناً في ضرر بالغ . . وهي تفعل ذلك ليس بدافع الفائدة الشخصية . . ولا الضعف البشري . . ولا الحصول على شيء من متاع الدنيا . . ولا كل ما يقتتل عليه البشر من تفاهات الحياة المادية . . كل هذا لا تحصل عليه . . ولكنها تحصل على السيئات وحدها . . وهذه النفس تورد صاحبها التهلكة دون أن تعطيه شيئاً . . وصاحبها يكون في داخل نفسه . . قلقاً . . حائراً . . لا ينام الليل . . كالنار يأكل بعضها بعضاً . . قد يكون في قمة الغنى . . وقد يكون ليس محتاجاً لشيء أعطاه الله من خيرات الدنيا ما يعجز عن إنفاقه بقية عمره ، ولكنه مع ذلك يظلم نفسه في أنه يفسد في الأرض . . وينشر السوء . . ويندفع إلى ما فيه ظلم البشر . . دون أي هدف إلا السوء نفسه . . وهذه النفس لا توجد في إنسان في قلبه إيمان . . ذلك أن الإيمان يدخل في القلب الرحمة . . ويدخل فيه الخوف من الله . . ويدخل فيه خشية يوم القيامة . . ويدخل فيه أن الله يسمع ويرى . . إذا كانت هناك ذرة من الإيمان في النفس . . فان هذه المعاني توجد فيها . . أما النفس الأمارة بالسوء فليس فيها رحمة . . ولا في القلب خشية . . وليس هناك خوف من يوم الحساب . . ولا هناك إحساس بأن الله يسمع ويرى ومن هنا فإن هذه النفس البشرية لا يكون فيها ذرة من إيمان . . وهي لا تحس بجمال هذا الكون . . ولا تتمتع بالحياة رغم ما قد يحيط بها من مظاهر النعيم الدنيوي . . ذلك انها تعيش في شقاء داخل النفس . . وضعة عدم الإيمان . . وفي شقاء خارج النفس من أن كل من يحيط بها يجب أن يكون شقياً . . وأن يناله الأذى . . ومن هنا فإننا عندما نقول إن هذا الإنسان قد ارتكب إثماً . . ونقول إن هذا الإنسان قد ظلم نفسه . . لا نعني نفس

الشيء . . الله سبحانه وتعالى قد وضح لنا معنى ظلم النفس . . ومعنى ارتكاب الإثم . . وبيّن لنا الفرق بين الاثنين . . والإعجاز في القرآن أن كل لفظ له معنى دقيق يعبر عنه . . ولا يخرج التعبير عن هذا المعنى . .

وهناك النفس اللوامة . . تلك التي تلوم صاحبها على الإثم . . وتدفعه إلى الخير . . وتجعله يحاسب نفسه . . وهذه النفس هي التي يختلط فيها عمل الخير . . والإثم . . هذه النفس في كثير من الأحيان تصل إلى الهدى . . أو إلى النفس المطمئنة التي وعد الله بها المؤمنين . . وهي تحث صاحبها دائماً على فعل الخير . . ولكن صاحبها إنسان ضعيف . . يأخذه الهوى مرة . . فيرتكب إثماً . . ويندم عليه . . فيتجه إلى عمل صالح . . ثم يغلبه هواه . . وهكذا يظل في صراع حتى ينتصر أحدهما على الآخر . .

فأتى بعد ذلك إلى النفس المطمئنة . . تلك التي أعطاها الله سعادة الدنيا والآخرة . . والنفس المطمئنة هي نفس اطمأنت إلى قول الله وعدله . . اطمأنت إلى قدرته وقوته . . اطمأنت إلى علمه ووجوده . .

النفس المطمئنة إلى قول الله وعدله . . تعرف يقيناً أن ما وعدها الله به سيتحقق . . وهي تعلم يقيناً أن قول الله هو الحقيقة الخالدة . . ومن هنا فهي تعلم أن الله يدافع عن الذين آمنوا . . وان الله وعد في كتابه العزيز هذه النفس بالحياة الطيبة في الدنيا والآخرة . . وقال فيها ﴿ **نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ** ﴾[1] وهي في اطمئنانها هذا لا تخشى شيئاً . . ذلك أنها تعرف أنها اختارت الطريق

(١) فصلت ، ٣١ .

الصحيح . . فإذا منع الله عنها شيئاً تهواه . . أو شيئاً تريده . . فلأنه يريد أن يعطيها خيراً منها . . وإن الله سبحانه وتعالى في منعه هذا الشيء . . رغم ما يحيط به من بريق الدنيا . . هو أعلم منا جميعاً بالخير والشر . . ومن هنا فإن كان قد منع خيراً نعرفه . . فإنه يريد أن يعطينا خيراً أكثر منه لا نعرفه . . وإذا منع عنا شيئاً نريده . . فلأنه يريد أن يعطينا شيئاً أحسن منه . . لا تصل إليه ارادتنا وعلمنا في هذه اللحظة . . فقضاء الله بالنسبة لهذه النفس هو خير دائماً . . خير في المنع . . وخير في العطاء . . خير التيسير . . خير في التيسير وخير في عدم تيسير الأمور . . خير في كل ما يأتي به . . لأن الخيرة فيما اختاره الله . . ولأن النفس لا تستطيع أن تخترق حجب الغد لتعلم الخير والشر . . وتستطيع أن تصل إلى الحكمة من كل شيء . . يحدث . . والإنسان في تعقله في كثير من الأحيان يرى الشر خيراً . . ويحسب السوء منفعة . . ولكن الأحداث عندما تتضح . . والزمن عندما يمر يرينا الله الحكمة فيما منع . . والحكمة فيما أعطى . . والنفس المطمئنة لقضاء الله تعلم إن الله وليُّ الذين آمنوا . . وأن الله يحب عباده المؤمنين ويدافع عنهم . . وأن الله في قضائه مع النفس المؤمنة . . إنما يريد أن يمنع عنها شراً لا تراه . . أو يعطيها خيراً أكثر من الذي تمنته . . وفي الحالتين فإن قضاء الله هو الخير . .

وهذه النفس تطمئن إلى عدل الله . . فهي تعلم إنه لا يوجد ظالم يستطيع أن يفلت من عقاب الله ولا يوجد قوي متجبر هو فوق قدرة الله وقوته . . ومن هنا فهي تلجأ للأقوى الذي تعرفه . . وليس للضعيف الذي يبدو أمامها قوياً . . ولا لمن أعطاه الله فظلم الناس بما أعطاه الله له . . أنها تتجه إلى المنعم الحقيقي . . وليس إلى حامل النعمة . . وتلجأ إلى العادل الحقيقي . . وليس إلى الإنسان الذي

يتبع هواه . . والعدل صفة من صفات الله سبحانه وتعالى لا يصل إليها البشر ولا يستطيعون مهما دققوا وبحثوا أن يصلوا إلى العدل الحقيقي . . ولكن قدرة الله سبحانه وتعالى هي التي تستطيع . . ومن هنا فمهما كان الظلم قاسياً فهي تثق أن عدل الله أكبر . . وأن عدل الله موجود . .

والنفس المطمئنة تثق في قدرة الله وقوته . . ومن هنا فإنها لا يهمها ما يعطى البشر . . وما يمنعونه من ظاهر الحياة الدنيا . . ذلك أنها تعرف جيداً أن الله قادر على أن يعطيها إذا سألت . . وأن الله قريب يسمعها . . وأن الله قوي يستطيع أن ينتقم لها . . وهي في هذا كله تحسس بالاطمئنان يملؤها مهما كان الظلام حولها لا تؤرقها الدنيا أبداً . . ولا تهزها الأحداث مهما جرت . . بل ينزل الاطمئنان اليها . . إيماناً ويقيناً بأن الغد يحمل مما في قدرة الله ما سيزيح وينهي كل ظلم وقع . . وكل اجحاف تم . . وهي في هذا مطمئنة إلى أن الحق يهزم الباطل . . . والخير يهزم الشر . . والظلم ليس له أقدام . . وسرعان ما يزول . .

قدر الله

« لقد جعل الله الكون في خدمتك . . ولكنه جعله كذلك لتضيف أنت إلى الحياة شيئاً . . وإذا كانت المسألة ان تترك كل شيء لله ولا تعمل . . فلست ادري لماذا يتخلى هؤلاء الناس عن مبدئهم في أبسط الاشياء وهي الطعام والشراب . . فإذا عطشوا قاموا ليشربوا . . واذا جاعوا قاموا ليأكلوا . . فلماذا لا يترك هذا القدر لله ؟ » . .

واذا كانت النفس البشرية لغزاً . . فإن هناك على الأقل ثلاثة أنواع من النفس البشرية يمكن تحديد اطارها بشكل مبدئي . . النوع الأول هو النفس الأمارة بالسوء . . وصاحب هذه النفس يقودها إلى الهلاك . . أو إلى العذاب دون أن تستفيد شيئاً . . هذه النفس تتمثل في أولئك الذين يفعلون الإثم لمجرد الاثم . . ودون الحصول حتى على متاع الدنيا الوقتي . . والأمثلة أمامنا كثيرة . . ذلك الذي يرسل شكوى كيدية في زميل له . . وهو يعرف أنها غير صحيحة . . وذلك الذي يشهد زوراً أو يقول كذباً ليمنع خيراً عن إنسان . . وذلك الذي ينقل الأقوال الكاذبة ليوقع بين البشر . . وذلك الذي يعد تقريراً مليئاً بالأكاذيب ليقدمه ضد انسان غيره . . وذلك الذي يحاول أن يشوه أي

عمل يقوم به أي انسان لمجرد أن يهدمه . . صاحب هذه النفس الذي يقوم بهذا لا يستفيد شيئاً . . فهو لا يمنع الخير ليأخذه . . ولا يوقف ترقية زميل له لأنه سيرقى . . ولا يرسل شكوى كيدية لينصر حقاً . . أو ليحقق فضيلة . . وإنما هو في ذلك كله يحاول أن يكون منّاعاً للخير . . دون أن يستفيد شيئاً . .

والنفس الثانية هي النفس اللوامة . . التي تلوم صاحبها على الإثم . . وتدفعه إلى الخير . . وتجعله يحاسب نفسه . . هذه النفس يختلط فيها الخير والشر . . وتتغلب فيها الطاعة مرة . . والمعصية مرة . . وهي في صراع دائم بين ما يجب أن تفعله . . وما يجب الا تفعله . . وهذا الصراع يظل موجوداً حتى ينتصر أحد جانبي النفس على الجانب الآخر . .

ولقد توقفنا في الحديث مع فضيلة الشيخ محمد متولي الشعرواي عن « الله والنفس البشرية » . . عند النفس المطمئنة . . تلك التي أعطاها الله سعادة الدنيا والآخرة . . اطمأنت إلى قوله وعدله . . وقوته وقدرته . . وعلمه ووجوده . . اطمأنت إلى أن الله حق . . وأن الآخرة حق . . وأن الدنيا حق . . فعملت بكل منها . . واطمأنت إلى أن الله ينصرها لأنها اختارت الطريق الصحيح . . واطمأنت إلى قضاء الله ∴ ما أعطاها خير . . وما منعه عنها . . فلأنه يريد أن يعطيها ما هو أحسن منه . . قضاء الله بالنسبة لهذه النفس هو خير في المنع . . وخير في العطاء . . وهي تؤمن أن الله يدافع عن الذين آمنوا . . وانه يحب عباده المؤمنين . . وانه رحيم في قضائه مع النفس المؤمنة . . وهي تؤمن انه لا يوجد ظالم أقوى من عدل الله . . ولا جبار يعلو على قدرة الله . . ولا مفسد في الأرض يفلت من عقاب

الله . . ومن هنا فهي تعلم حين ترى الظلم ان العدل قادم . . وحين تحس بالجبروت . . إنها بداية النهاية . . حين ترى المفسدين في الأرض تعلم أن قضاء الله قريب . .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي أن النفس المطمئنة تثق في قدرة الله وقوته . . ومن هنا فهي تحس بالاطمئنان يملأها مهما كان الظلام حولها . . وهي تؤمن أن الغد يحمل ما سيزيح ظلماً وقع . . وينهي إجحافاً تم . . وهي في هذا مطمئنة أن الحق يهزم الباطل . . والخير يهزم الشر . . وانه ما من معركة بين حق وظلم استمرت طويلاً . . فالظلم ليس له أقدام يقف عليها .

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي ولكننا في كثير من الأحيان ننظر إلى الأشياء بمنظارٍ آخر . . فنحن نرى في بعض ما يحدث إجحافاً . . ونحن نريد أن نصل إلى ما نحققه دون أن نعمل . . ودون أن نمتحن . . مع أن الجمال في الحياة هو أن تأخذ ناتج عملك . . فلو أن الطالب الذي لا يذاكر والطالب الذي لا ينظر في كتاب طوال العام نجح . . لانعدم الجمال في الحياة . . وانعدمت معه قيمة العمل . . ولو أن الإنسان الذي يعمل في زراعة حقله . . ويتعب ويشقى طوال العام . . يصل إلى نفس المحصول الذي يصل إليه من لم يذهب إلى أرضه مرة واحدة لانعدم الجمال في الدنيا . . ولانعدم العمل . .

وفي هذا الكون . . هناك أشياء تفعل لك . . وهناك أشياء تفعل بك . . فالشيء الذي يفعل لك في الكون يستوي فيه الناس جميعاً . . كافر ومسلم . . يستوي فيه الناس كل الناس . . هذه الأشياء هي : كالشمس مثلاً . . الشمس تشرق كل صباح ولا تخص بنورها

كافراً أو مسلماً . . أو شاكراً لله . . أو جاحداً بنعمه . . كلهم سـواء . . عـطاء الشمس للجميع . . سـواء . . وهي لا تفرِّق بين شخص وشخص . . والهواء مثلًا تتنفسه كل الكائنات الحية دون أي تمييز . . والماء مثلاً يشرب منه كل كائن حي بصرف النظر عن دينـه وعقيدتـه وإيمانه بـالله أو كفره . . هـذه الأشياء تفعـل لك كثيـراً . . الشمس تعطينا النور والطاقة وأسباب الحياة إلى آخر ذلك . . والهواء يعـطينا أسبـاب الاستمرار في الحيـاة . . والماء يعـطينـا الحيـاة نفسهـا . . ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[1] . . فهذه الأشياء تفعل لك . . وتفعل لك بلا تمييز . . أي إنها لا تميز في عـطائها بين عـاصٍ . . وعابد . . ومؤمن . . وكافر . .

نأتي بعد ذلك إلى الأشياء التي تفعل بك . . وارتقـاء الإنسان في الكون . . يتم فيما ينفعل بك لا فيما يفعل لك . . إن ما ينفعـل بك أن فعلت فيه ينفعل . . إذا حرثت الأرض حرثاً جيداً ثم وضعت فيها البذرة ثم واظبت على رعايتها تعطيك ثمراً جيداً . . وإن بحثت عن المعـادن الصالحـة لحياة الإنسـان في باطن الأرض . . تعـطيك معادنها . . ولـو لم تفعل فـإنها لن تنفعـل معك . . فـالذين يعملون ويجدون في الأشياء تنفعل معهم . .

والذين لا يقومون بأي جهد مع الأشياء التي تنفعل للإنسان في الأرض لا يتقدمون . . ويـظلون متأخـرين وهنا يحـدث الخلاف بين ارتقاء عدد من الناس . . وتخلف عدد منهم . . يحدث هذا الخلاف في التعامل مع الأشياء الموجودة في الكـون التي تنفعل بـك . . ولا دخل للدين في هذه المسألة . . فالأشياء التي تنفعل لك . . كالشمس

(١) الأنبياء ، ٣٠ .

والهواء والماء . . وما في الأرض . . لا تفرق في عطائها بين مؤمن وكافر وملحد . . والأشياء التي تنفعل بك . . والتي يجب أن تقدم لها عملاً لتحصل على النتيجة . . هذه الأشياء أيضاً لا تفرق بين مسلم وكافر ومؤمن وملحد . . فالكافر الذي يحسن حرث أرضه ويرويها . . يحصل على أجود أنواع البذرة . . والذي يتعهد الزرع . . يجني محصولاً وفيراً . . والمؤمن الذي يهمل الأرض ولا يزرعها ولا ينفعل معها لا تعطيه الثمرة لأنه لا يطبق قوانين الكون . . ولا يعمل لينفعل مع الأشياء التي تنفعل به في الدنيا . . والملحد أو الكافر الذي يستخدم أحدث الأساليب العلمية . . ويجد ويسعى ليكشف عن المعادن في باطن الأرض . . تظهر له هذه المعادن . . لأنها تنفعل به . . والمؤمن الذي يترك المعدن في باطن الأرض . . ولا يبحث عنه . . لا ينفعل به . . ولا يخرج له . .

تلك حقيقة كونية يجب أن نعيها جيداً . .

ولقد جعل الله ما على الأرض زينة لها . . ليجذب الإنسان إلى العمل . . فما هي الزينة في حقيقتها . . هي ما يخلع على ذاتيات الأشياء ليجعلها أكثر جاذبية . . فالمرأة مثلاً تتزين لتصبح أكثر جاذبية للرجل . . وزينة الأرض هي أن تصبح أكثر جاذبية للإنسان ليعمل . . فالإنسان حين يرى حديقة جميلة . . أو عمارة فخمة . . يتمنى أن يبني أو يعمل مثلها . . فتكون هذه الزينة حافزاً له للعمل . . فكأن الله قد جعل ما على الأرض زينة لها ليجذبني إليها . . ثم بعد ذلك هل تكون هذه الزينة هي الغاية . . أم لا تكون . . وهنا الابتلاء . . ويقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُم مِنَ الأَرضِ واسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾[1] . . معنى استعمركم . . أي طلب منكم عمارتها . . وذلك

---

(١) هود ، ٦١ .

لا يتأتى إلا بأمرين .. أن تبقي الصالح على صلاحه .. لا تفسده .. وأن تصلح الفاسد وتزيد إصلاحه .. وأقل ما تأمر به هذه الآية .. هو أنك لا تأتي للصالح وتفسده .. معنى استعمر الأرض .. أي أبقى الصالح على صلاحه .. أو زاد في إصلاحه ..

والله يخاطب الشيء بالقوة والشيء بالفعل .. زينة الله على الأرض من أثرين .. آثار خلق الله والطبيعة التي وهبها لنا .. وآثار ما فعله الإنسان بما علمه الله له .. ليضيف إلى ذلك .. وعندما نقرأ في سورة الكهف ﴿ وَيَسأَلُونَكَ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً .. إِنَّا مَكَّنَا لَهُ في الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيءٍ سَبَباً فَاتبَعَ سَبَباً ﴾[1] .. ومعنى ذلك أننا أعطيناه أسباب المنعة والقوة والحكم في الأرض .. ولكنه لم يقتصر على ما أوتي .. لم يقتضر على ما فعل له .. اتبع هو سبباً .. فيما ينفعل له .. ولقد أورد الله هذه الآية الكريمة ليقول لنا : إن الإنسان مهما يعطى لا يجب أن يكتفي بما أعطي له .. ولا يفعل شيئاً .. بل يجب أن يأخذ هذاالعطاء .. ويعمل من أجل أن يضيف اليه .. وينفعل به مع العناصر التي خلقها الله لتنفعل بعمل الإنسان في الأرض .. وذلك مصداقاً للحديث الشريف : لا خير فيمن لا يضيف .. والإضافة هنا بمعناها العام .. أي إنه ، انت إن استفدت من الكون وجعل الله الكون في خدمتك .. فلا بد أن تعطي عطاء للكون تضيف إليه شيئاً .. وإلا أصبحت الحياة جامدة وغير متحركة .. ولا متطورة .. وتوقف تطور البشرية ونموها .. إذ إن الحياة تتطور من أن يضيف الإنسان من ذاته ما تفاعل به مع بيئته .. ومع الكون ليصنع شيئاً جديداً .. أي أن الله

---

(١) الكهف ، ٨٣ .

سبحانه وتعالى ينهانا ان نقف أمام قطعة من الأرض . . ولا نفعل شيئاً نتنظر المطر ثم يظهر النبات أي نبات . . فتأكل منه . . أو ترعى منه الماشية . . ثم بعد ذلك لا شيء . . لا بد أن يعرف الإنسان ويدرس كيف يحرث هذه الأرض . . وما هي النباتات الصالحة لها ليحصل على أجود النتائج . . لا بد أن يتعلم كيف يجعل هذه العناصر التي خلقها الله في الأرض لتنفعل به . . وتعطيه أحسن النتائج وهذا معنى الآية الكريمة . . فاتبع سبباً . . أي إنه لم يقف ولم يقتصر على العطاء الذي أعطي له من الله . .

والذي يجب أن نعرفه . . أن منازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة . . فقد يكون رجلاً ذا جاه ومال في الدنيا . . أخذ من نعم الأرض الكثير . . ومع ذلك مصيره النار . . وقد يكون رجلاً ليس له حظ في الدنيا رزقه يكاد يكفي قوته . . هو من أهل الجنة . . تلك حياة . . وتلك حياة . . بل إن المترفين في نعيم الدنيا هم عادة أكثر بعداً عن الله من غيرهم . . ولذلك ضرب الله عدة أمثال في القرآن . . ولكن هذا لا يجب أن يلهينا عن الحقيقة . . وهي أن من يتبع القوانين التي وضعها الله في الأرض . . بالنسبة للحياة الدنيا يأخذ نصيبه منها . . ومن يتبع قوانين الله بالنسبة للحياة الآخرة يأخذ نصيبه منها . .

وما أوضحت . . فإن الله قد أمرنا أن نضيف من الأسباب التي أعطاها لنا في سبيل الرزق . . عملاً لنحصل على أحسن النتائج . . وهذا العمل هو نوع من العبادة لأننا نطيع قوانين الله في الأرض . . وهو أعطانا أسباب الرفعة في الدنيا . . وفي الآخرة . . وعلينا أن نأخذ بهذه الأسباب . . ونعمل من أجل الدنيا ومن أجل الآخرة . . مصادقاً لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾[1] . . فإذا كان هناك

(١) القصص ، ٧٧ .

تخلف في الدول الاسلامية . . فالإسلام نفسه بريء من هذا التخلف . . لأنه وضع أمامنا كل أسباب الرقي والتقدم . . وطلب منا العمل في الحياة الدنيا . . حتى يتحقق لنا ثمرة هذا العمل . . فإذا كنا قد تركنا أسباب التقدم التي هي موجودة في الإسلام فليس هذا عيب الإسلام . . وإنما العيب في عدم تطبيق تعاليم الإسلام .

وإنني أعجب من بعض الناس الذين يفسرون التوكل على الله بأنه دعوة إلى عدم العمل والجهاد . . بينما هو في الحقيقة دعوة للجهاد والعمل . . والتأكد من أن النتيجة طيبة . . لأن الله يبارك هذا العمل ويبارك هذا الجهاد . . الصادر من قلب المؤمن . . ولكن بعض الناس يريدون أن يضعوا في الدين ما ليس فيه . . وإذا كانت المسألة هي أن نترك كل شيء لله . . ولا نعمل . . فلست أدري . . لماذا يتخلى هؤلاء الناس عن مبدئهم في أبسط الأشياء . . وهو الطعام والشراب . . فإذا عطش فهو يقوم ليشرب . . واذا جاء الطعام . . فهو يأكل ويبذل جهداً في تناول الطعام ومضغه . . فلماذا لا يترك كل هذا لقدر الله . . إذا كان المطلوب هو عدم العمل ؟ ولماذا يأتي إلى هذه النقطة بالذات . . ويضيف عملاً إلى ما أعطاه الله ؟ .

وما تحت الثرى

* وكان يجب أن تتنبه إلى قول الله سبحانه وتعالى « وما تحت الثرى » . . وأن تعرف أن الرزق في الأرض لا يوجد فقط فوق السطح . . ولكنه يوجد أيضاً تحت سطح الأرض . . وتلك معجزة قرآنية بدأت تتكشف الآن . . والعالم ينفق البلايين ليبحث عن الثروات الموجودة « تحت الثرى » *

نأتي اليوم إلى ختام حديث فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي عن « الله والنفس البشرية » . . ذلك الحديث الذي تناول فيه علاقة النفس البشرية بخالقها . . ولماذا حمل الإنسان الأمانة . . وأثبت فيه أن من يجادلون في الله سبحانه وتعالى . . إنما يثبتون وجوده وأن الله جعل من المضلين اثباتاً للإيمان . . وأن الله حقٌ . . وأن القرآن حق ..

ويستطرد فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي بأن الله سبحانه وتعالى خلق لكل شيء في الدنيا قانوناً يعمل به . . فالماء له قانون . . والنار لها قانون . . والأرض لها قانون . . والنجوم لها قانون . . وهذه القوانين تعمل بقدرة الله . . وبإذن الله . . الله سبحانه وتعالى قائم على ملكه . . مدبر للأمر فيه . . على أنه سبحانه وتعالى فوق

الأسباب والمسببات . . والقوانين . . وبذلك فإنه في معجزاته لرسله قد خرق لهم القوانين . . فالماء قانونه الاستطراق . . ومع ذلك عندما ضرب موسى الأرض بعصاه . . انشق البحر وتعطل قانون الاستطراق . . والنار خاصيتها الإحراق . . ومع ذلك عندما ألقي إبراهيم في النار تعطلت خاصية الإحراق . . وكانت النار برداً وسلاماً على ابراهيم . . وقانون الحياة . . أن الإنسان إذا فارقها لا يعود إليها . . ولكن الله سبحانه وتعالى خرق هذا القانون لعيسى عليه السلام فجعله يحيي الموتى بإذن الله . . إلى آخر ما جاء في معجزات الرسل . .

على أن الله سبحانه وتعالى وضع معجزات تحدى بها البشر . . ومعجزات لم يتحد بها أحداً . . فمثلاً خلق عيسى عليه السلام معجزة . . لم يتحد بها الله البشر . . ولم يطالبهم بالاتيان بمثلها . . ولكن كان المقصود بها هو إطلاق القدرة . . كذلك معجزة شق موسى البحر بعصاه لم يتحد بها الله أحداً ولكنها كانت لإطلاق القدرة . .

على أن معجزات الله سبحانه وتعالى تختلف عما يستطيع أن يقدمه البشر . . أو العلم البشري من طاقات أو معجزات . . والعلم البشري لا يستطيع أن يخلق من الضعيف قوياً . . ولا من العاجز قادراً . . ولكن الإنسان يستطيع أن يقوم بالعمل . . عن الشخص نفسه . . بمعنى انني إذا رأيت شيخاً ضعيفاً وأمامه حمل ثقيل . . فكل ما أستطيع أن أفعله . . هو أن أحمل عنه هذا الحمل . . أو آتي له بآلة أو ونش يحمله . . ولكنني لا أستطيع ولا يستطيع بشر أن يبدل هذا الشخص الضعيف الطاعن في السن . . بشخص قوي يستطيع هو أن يحمل هذا الحمل . . ولكن الله سبحانه وتعالى هو القادر على أن يخلق من الضعف قوة . . وان يجعل الطير تهزم جيشاً ضخماً من

الأفيـال في عام الفيـل . . وأن يعطي قـدرة السحـر لمـوسى فيغلب السحـرة . . ثم يعطيـه قدرة شق البحـر . . فيضرب الأرض بعصـاه فينشق البحر . . وهو يعطي لعيسى القدرة على شفاء المرضى وإحياء الموتى بمجرد الإشارة . . ويعطي لإبـراهيم أن يقطع الـطير . . ثم يدعوها فتسعى إليه . . وقد عادت إليها الحياة . . كل ذلك يتم بإذن الله ومن معجزاته . . ولكنـه لا يمكن أن يتم بعلم بشر . . ومن هنـا فإنك إذا رأيت شخصاً ضعيفاً لا حول له ولا قوة يهزم شخصاً من أقوى رجال العالم نفوذاً وقوة . . فاعلم أن هذه معجزة من عند الله . . وانها أمر من أمر الله . . ذلك أنه هو وحده القادر على أن يخلق من الضعف قوة . .

وهكذا وضع الله سبحانه وتعالى قوانين في الأرض لكـل شيء . . وجعل الأسباب والمسببـات في يده . . ولكن كـل شيء يمضي بالقانون الذي وضعه الله له . . فإذا أراد الله سبحانه وتعالى بحكمة هو يعلمها ام يعطل هذا القانـون . . أو يأتي بعكسـه . . فإنـه يقول كن فيكون .

ولقد نبهنا الله سبحانه وتعالى في قرآنه إلى أشياء لم يكشفها إلى العقـل البشري إلا خـلال الفترة الأخيـرة . . فقـال الله ﴿ **لَـهُ مَـا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى** ﴾[1] . . وكان لا بد للعقل البشـري أن يتنبه لكلمـة « ما تحت الثـرى » . . إلى أن هناك كنوزاً وثروات قد وضعها الله سبحانه وتعالى تحت سطح الأرض . . ولكن الإنسان في وقت نزول القرآن لم يتنبه إلى الآية « وما تحت الثرى » . . ولم يفطن إلى أن الله قد وضع من الثـروات ومن الأشياء

---

(١) طه ، ٦ .

في باطن الأرض . . بقدر ما وضعه فوق سطحها . . وربما أكثر . . ثم تقدم العلم . . وحدثت الزلازل والبراكين . . وخرج ما تحت الثرى إلى ما فوقها ليكشف للإنسان بقدرة الله عن الكنوز التي وضعها الله تحت الثرى . . فعرفنا المناجم . . والمعادن المدفونة في باطن الأرض . . وعرفنا البترول . . وبدأ الإنسان يبحث في معنى الآية الكريمة « وما تحت الثرى » . . وفي كل يوم يكتشف جديداً لم يصل إليه علم . . وهكذا كانت الآية التي ذكرها القرآن تمس حقيقة كونية كبرى . . هي أن الرزق في الأرض . . والخير الذي وضعه الله فيها . . لا يوجد فقط فوق السطح . . ولكنه يوجد تحت سطح الأرض أيضاً . . وتلك معجزة قرآنية بدأت تتكشف للعالم . . والآن تقوم الدول الصناعية الكبرى بانفاق الملايين من الأموال . . والبحث عن الثروات الموجودة تحت الثرى . .

على أن الله سبحانه وتعالى حين وضع القوانين في الأرض . . جعلنا نعرف بعضها . . وأخفى بعضها عنا . . وجعل بعضها نعرفه بآثاره دون أن نصل إلى حقيقته . . فالجاذبية الأرضية مثلاً هي حقيقة علمية نعرف جميعاً آثارها . . ولكننا لا نستطيع أن نصل إليها . . رغم أنها موجودة ومؤثرة في حياتنا اليومية . . فأنت حين تذهب إلى المعمل ليشرح لك الأستاذ الجاذبية الأرضية . . ويأتي بقطب ممغنط . . ويضعه أمامك . . وقطب آخر غير ممغنط لا تستطيع أن تقول أيهما فيه الجاذبية . . وأيهما ليست فيه إلا إذا قمت بالتجربة . . وإذا نقلت الجاذبية من قطعة حديد إلى قطعة أخرى . . فأنت لا ترى ماذا يحدث في جزئيات القطعة التي لم تكن ممغنطة . . ثم أصبحت كذلك . . انك لا ترى الجزئيات وهي تتأثر بالمغناطيسية . . ولكنك حين تقرب قطعة الحديد بعد ذلك من معدن معين . . تجدها تجذبه . . ومن هنا

فإنك تعرف الشيء بآثاره دون أن تستطيع أن تدرك ما هو . . وما ينطبق على الجاذبية . . ينطبق على الكهرباء . . فأنت لا ترى التيار الكهربائي وهو يمضي في أحد الأسلاك . . ولكنك إذا وضعت مصباحاً في آخر السلك وأوصلته به . . حصلت على الكهرباء . . ولكن منظر السلك الناقل للكهرباء لا يستطيع أن يدلك . . أو أن ينبئك إذا كان فيه تيار كهربائي أم لا . .

ولقد جاءت هذه الحكمة لتقرب للعقل البشري ما هو غائب عنه . . ولكي يستطيع ان يعرف بآثاره . . وذلك حتى يطمئن هذا العقل إلى أنه من الممكن أن يعرف الشيء برؤيته . . ومن الممكن أن يعرفه بآثاره وأفعاله دون أن يراه . . والعجيب أن عدداً كبيراً من الناس يؤمن بالجاذبية . . ويأخذها على أنها حقيقة علمية . . ولا يجادل فيها . . ثم يجادل فيما قاله الله سبحانه وتعالى . . لأنه يعرفه بآثاره . . دون أن يراه . . وهذه هي حماقة العقل البشري . . أو ما نطلق عليه (هوى النفس) . . فالجاذبية الأرضية مثلاً . . أو الكهرباء . . شيء لا يمنع الإنسان مما يريد أن يأخذه ظلماً من إنسان آخر . . أو مما يريد أن يستمتع به حراماً . . أو مما يريد أن يحصل عليه من حقوق الآخرين . . أو يتميز به على الناس بغير عمل ولا جهد . . ومن هنا فإن هذه الحقائق الأرضية لا تتصادم مع أهواء النفس البشرية . . ولا مع شهواتنا . . ولذلك فإن الإنسان يعترف بها عن رضى واقتناع . . لأنها لا تسلبه شيئاً يريد تحقيقه . . والطمع البشري بلا حدود . . فإذا أتينا إلى أوامر الله سبحانه وتعالى . . نجد اننا بدلاً من أن نأخذ بآثارها في أنها تخلق المواطن الصالح . . والإنسان الذي يسود الأرض . . وتعطينا الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة . . نجد اننا بدلاً من أن نأخذ بهذه الآثار والنتائج . . ونرى اتباع ما قاله الله صلاحاً للنفس

والمجتمع . . وبعداً عن القلق والخوف . . والحياة التي يملؤها الرعب داخل النفس . . وعبادة الفرد . . نحن لا نناقش كل هذا . . بل نتركه محاولين أن تكون لنا عقول مساوية لقدرة الله سبحانه وتعالى . . بحيث نستطيع أن نناقش هذه الأشياء مناقشة بدون علم . . وفرق هائل بين علم الله وعلم البشر . . ونمضي في طريقنا . . أو يمضي بعض الناس في طريقهم إلى أبعد من ذلك . . فهم يضعون عقولهم فوق قدرة الله سبحانه وتعالى . . محاولين كما يدعون سفهاً وزيفاً أن يعدلوا ويبدلوا ما شرع الله . . وكأنهم يملكون من القدرة والعلم ما هو فوق قدرة خالق السموات والأرض . .

على أن الانسان الذي يجادل في قدرة الله . . ويخترع النظريات . . فهذه شيوعية . . وهذه اشتراكية . . وهذه رأسمالية . . ومذاهب أخرى كثيرة يشرعونها محاولين أن يقيموا بها عن جهل وسفاهة . . مجتمعاً يدّعون أنه أفضل من ذلك المجتمع الذي وضع الله قواعده . . وفي هذه الحالة يجب أن نفهم أن هناك نوعين من النظريات . . وأن نفرق بينهما . . النوع الأول هو نوع يتعب صاحبه . . وتستفيد منه البشرية كلها . . هذا النوع هو الاختراعات العلمية المعتمدة على الأبحاث المعملية . . فالإنسان الذي يقضي سنوات طويلة من حياته داخل معمل من المعامل . . ليخترع راديو . . أو تليفزيون . . أو تليفون . . إنما يعاني هو حتى يصل إلى اختراعه . . فإذا تم الاختراع أستفادت منه البشرية كلها . .

أما النوع الآخر من النظريات البشرية . . فهو النظريات التي تتبع هوى النفس . . ففي هذه الحالة فإن صاحب النظرية هو الذي يتمتع ويقوي نفوذه . . ويزداد جاهاً ومالاً وسلطاناً . . بينما يعاني . .

منها المجتمع . . فأي فلسفة معينة . . لنظرية سياسية أو غيرها . . إنما يستفيد منها صاحبها لأنها تنبع من هوى النفس . . أما الذين يتبعونه فهم الذين يعانون ويكابدون . . وحولنا في الدنيا كلها . . وفي كل بلد من بلاد العالم أصحاب نظريات سياسية تخالف ما شرع الله . . هم يتمتعون . . والشعب يعاني من الإرهاب والبطش والظلم والتعذيب . .

والإنسان في هذا الذي يشرعه . . إنما ينسى خلقه . . وإعجاز الله سبحانه وتعالى في الخلق . . فلو أن الإنسان عرف أن قدره وحياته . . وهل هو شقي أم سعيد . . وكل ما سيصيبه في الحياة الدنيا إلى يوم الساعة . . مكتوب على نطفه صغيرة لا يمكن أن ترى بالعين المجردة . . لعرف وعلم مدى قدراته بالنسبة لقدرة الله سبحانه وتعالى الذي وضع كل هذا العلم في شيء لا يصل حجمه إلى جزء صغير من المليمتر . . ولعرف أن سجل حياته كلها موجود في هذا الحيز الضيق بقدرة الله سبحانه وتعالى . . ونحن حين يخترع إنسان جهازاً صغيراً دقيقاً يمكن أن يؤدي عمليات معقدة مع صغر حجمه نهلل لهذا الاختراع . . ولكننا في الحقيقة يجب أيضاً أن نسجد لقدرة الله الذي استطاع أن يضع كل حياة البشر في حيز لا يذكر . . وأن نعرف أننا مع تقدم العلم هناك فرق رهيب . . بين القدرة البشرية . . وبين قدرة الله سبحانه وتعالى التي يحاول الإنسان أن يجادل فيها . .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد كتب على نفسه الرحمة فلأنه خبير بعباده . . لطيف بهم . . فكفر إنسان بربه جريمة يستحق عليها عذاب الدنيا والآخرة . . ولكن الله في رحمته بخلقه يفتح باب التوبة مرات ومرات . . ويغفر ويتسامح . . ويعطي الإنسان الفرصة بعد

الفرصة حتى ساعة الموت . . عله يدرك الإعجاز في هذه الدنيا . . ويدرك عجز العقل البشري أمام قدرة الله . .

على أن النفس البشرية في حيـاتها كلهـا متعلقة بـالله سبحانـه وتعالى . . حتى تلك النفس التي ظلمها صاحبها فهي تتـوق إلى الله وتسعى إليه . . وفي لحظات عندما تجد نفسها عاجزة أمام قدرته . . ترفع يديها إلى السماء وتصيح يا رب . . ويكون عدلاً الا تفتح أبواب السمـاء ولكن رحمة الله تفتـح أبواب السمـاء وتتنـزل على العـاصين لتريهم طريق التـوبة . . « والله نسـأل أن يهدينـا جميعاً إلى صـراطه المستقيم » . .

الفهرس